من بلاغة بعض الأدعية في القرآن الكريم

د . يحي بن محمد إبراهيم عطيف
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية
جامعة الملك خالد بأبها

ملخص البحث

ورد الدعاء في القرآن الكريم في أسلوب بيانيّ معجز، ولأهمية الدعاء في حياتنا؛ ولإيماني بأن في وصل قواعد البلاغة بالنصوص ولا سيّما النص القرآني إمداداً لها بالماء الذي يبقي لها النماء، ويزيل عنها الجمود، فبذلك تزدهر الدراسة البلاغية، وتحقق أهدافها في تربية الأذواق، لمعرفة الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وتذوق الجمال في النصوص الأدبية، لتقف الأصالة في وجه موجات التغريب التي تحاول أن تشوه جمال لغة القرآن .

لذلك جعلت من آيات الدعاء موضوعا للبحث، حاولت فيه تجلية بعض مظاهر الإعجاز البلاغي فيها، وبيان بعض خصائص أسلوب الدعاء في القرآن الكريم . ولكثرة آيات الدعاء اخترت منها نماذج للدراسة . وسلكت منهجاً : يبدأ بذكر الآيات، وينتقل إلى إجمال القول في معناها وموقعها من السياق، ثم يشرع في دراسة بلاغتها . وحاولت أن تكون دراسة تحليلية تذوقية، تجعل من القاعدة البلاغية وسيلة لتذوق بلاغة النص القرآني، واستثارة ذوق القارئ؛ ليتفاعل مع النص، ويسهم في تذوقه، واستكشاف أسرار بلاغته . ووصلت إلى نتائج منها :

١) تضمنت آيات الدعاء مطالب عالية تجمع بين خيري الدنيا والآخرة .

٢) جاءت آيات الدعاء في أسلوب معجز، يتسم بالوضوح والقوة والجمال .

٣) ومن أبرز المظاهر البلاغية التي تحقق تلك السمات في أسلوب الدعاء ما يأتي :

(أ) الدقة في اختيار الألفاظ، وهي من مظاهر الوضوح .

(ب) أساليب العدول أو الخروج عن الأصل كالتقديم والتأخير والإيجاز والحذف والالتفات والتصوير وهي من مظاهر القوة والجمال .

٤) من الملاحظ البلاغية العامة في آيات الدعاء إيثار لفظ الجلالة في دعاء العبادة والثناء، ولفظ " الرب " في دعاء الطلب والمسألة .

* * *

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين .

وبعد، فالقرآن الكريم ((كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)) (١) .

ذلكم أبلغ ما وصف به القرآن، ونعت به أسلوبه المعجز العظيم . فهو بناء محكم، اختيرت كلماته أدق اختيار، وانتظمت في سلك من النظام، فلا ضعف ولا تعقيد، بل حسن تأليف، ودقة تنسيق، وتلاؤم وإحكام وإتقان .

وعلى الرغم من أن أسلوب القرآن لم يخرج عن مألوف العرب في لغتهم في مفرداته وجمله وتراكيبه وعباراته وصوره . فمن حروف لغتهم تألفت كلماته، ومن كلماتهم تألفت جمله وتراكيبه، وعلى قواعدهم ومذاهبهم في القول جاء نظمه وتأليفه ــ على الرغم من ذلك فقد أعجزهم بأسلوبه الفذ ونظمه العجيب، وتأليفه البديع، فجاء بأفصح الألفاظ، في أحسن صور التأليف، متضمناً أصحّ المعاني وأسمى المقاصد والموضوعات ومنها الدعاء .

وللدعاء أهمية كبرى، ومنزلة عليا في حياة المسلم، إذ هو لبّ العبادة وروحها، وسمة العبودية وعنوانها . فقد صح الخبر عن المصطفى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بأن ((الدعاء هو العبادة)) (٢) .

ولا تخفى مكانة العبادة، فقد خلق الله الخلق لعبادته، وأمرهم بالدعاء، ووعد بالإجابة تفضلاً وتكرماً وإحساناً، وتوعد من استكبر عن عبادته . فقال عزّ وجل :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٣) .

وقد افتتح القرآن بالدعاء، واختتم به، فسورة الفاتحة دعاء ثناء وطلب، وسورة الإخلاص في دعاء الثناء، والمعوِّذتان في دعاء الطلب والمسألة (٤) . وبين هذين الشاطئين العظيمين ــ أعني الفاتحة والخاتمة ــ وردت آيات الدعاء في كثير من سور القرآن الكريم، بين فيها ــ عز وجل ــ لعباده كيف يدعونه دعاء يليق بجلاله وعظمته، وأخبر عن أدعية بعض الأنبياء والمرسلين وعباده المؤمنين الصالحين ومناجاتهم وابتهالاتهم .

والدعاء في القرآن الكريم ــ شأنه شأن موضوعات القرآن ومعانيه الأُخر ــ قد جاء في أسلوب بياني معجز، يتبوّأ من البلاغة ذروتها ((بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه)) (٥) .

ولأهمية الدعاء وعظم مكانته، ولإيماني بأن في وصل قواعد البلاغة بالنصوص البليغة ولا سيما النص القرآني الفياض الزاخر بشتى الأساليب والصور البلاغية إمدادا لها بالماء الذي يُبْقي لها النماء، ويزيل عنها الجمود والجفاف الذي لحقها في العصور المتأخرة، فبهذه الصلة تحيا الدراسة البلاغية وتزدهر، فتحقق أهدافها في تربية الأذواق وتنمية المواهب، لمعرفة الإعجاز البياني للقرآن الكريم وتذوق الجمال البلاغي في النصوص الأدبية، ولتقف الأصالة قوية شامخة في وجه موجات التغريب الفكري والفني والأدبي التي تحاول أن تشوه ذوق لغة القرآن وجمالها.

لذلك جعلت من آيات الدعاء في القرآن الكريم موضوعاً لهذا البحث حاولت فيها توظيف مسائل البلاغة وفنونها لفهم هذه الآيات وتذوقها، وتجلية بعض مظاهر الإعجاز البلاغي فيها، وبيان بعض خصائص أسلوب الدعاء في كتاب الله العزيز . وقد استعنت في إعداد هذا البحث بكتب التفسير وبخاصة تلك التي عنيت بالجوانب البلاغية كالكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) . وتفسير أبي السعود (ت٩٨٢هـ) مضافاً إليها ما استطعت الوقوف عليه من المصادر القديمة والمراجع الحديثة اللغوية والبلاغية والأدبية وغيرها التي تتصل بموضوع بحثي (٦) .

وجعلت هذا البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة . تناولت في التمهيد مفهوم الدعاء واستعمالاته ومنهجه في القرآن الكريم وأشرت إلى أنواعه، ونظراً لكثرة آيات الدعاء في القرآن الكريم، فقد اخترت منها سبعة نماذج للدراسة هي : سورة الفاتحة، وخاتمة سورة البقرة من آية (٢٨٥ ــ ٢٨٦)، ودعاء أولي الألباب في خاتمة سورة آل عمران من آية (١٩١ ــ ١٩٤)، ودعاء إبراهيم عليه السلام في سورة إبراهيم من آية (٣٥ ــ ٤١)، ودعاء زكريا ــ عليه السلام ــ في مطلع سورة مريم من آية (١ ــ ١٠)، ودعاء موسى ــ عليه السلام ــ في سورة طه من آية (٢٥ ــ ٣٥)، ودعاء نوح ــ عليه السلام ــ في سورة نوح من آية (٢٤ ــ ٢٨)، ورتبت الآيات وفق ترتيب السور في المصحف، وقسمتها من حيث الداعي إلى مبحثين : الأول من بلاغة دعاء المؤمنين وتمثله النصوص الثلاثة الأولى . والثاني من بلاغة دعاء الأنبياء والمرسلين (٧) وتمثله النصوص الأخرى، وآثرت ذلك على تقسيم البحث باعتبار مصطلحات البلاغة؛ لتسلم الآيات الكريمة من التقطيع والتجزئة؛ وليتسنى لي أن أنظر إلى نص الدعاء المختار نظرة عامة شاملة .

وسلكت منهجا في دراسة الآيات : أبدأ بذكر النص المختار، وأنتقل إلى إجمال القول في مضمونه وعلاقته بما قبله وموقعه من السياق، ثم أشرع في دراسة بلاغته . وقد حاولت أن تكون دراسة تحليلية فنية تذوقية، تجعل من القاعدة البلاغية أداة لتذوق بلاغة النص القرآني، واستجلاء دقائق نظمه، واستثارة ذوق القارئ؛ ليتفاعل مع جمال النص، ويسهم في تذوقه واستكشاف أسرار بلاغته .

والله أسأل أن يجنبني الزلل، وأن يوفقني إلى خدمة كتابه الكريم، والله الهادي إلى سواء السبيل .

❁❁❁

التمهيد : مفهوم الدعاء واستعمالاته في القرآن الكريم وأنواعه

(أ) الدعاء في اللغة :

الدعاء ((مصدر لفعل دعا يدعو دَعْواً ودعاءً)) (٨) .

ومادته تدل على النداء والطلب والسؤال والتسمية، والحثّ على فعل الشيء .

قال ابن منظور : ((دعا الرجل دعوا ودعاء : ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلانا أي صحت به واستدعيته ...)) (٩) .

وقال ابن سيده : الدعاء ((طلب الطالب للفعل من غيره)) (١٠)، وقال الراغب الأصفهاني : ((... ويستعمل استعمال التسمية نحو : دعوت ابني زيداً أي سميته، ودعوته إذا سألته وإذا استغثته)) (١١) .

(ب) معاني الدعاء في القرآن الكريم :

وفي القرآن الكريم وردت مادة " د ع و " في آيات كثيرة تدل على معان متعددة، منها ما يأتي :

١ ــ العبادة :

وهذا المعنى يرد بكثرة في استعمالات القرآن الكريم، ومنه قول الله تعالى : ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ (١٢) .

قال الزجَّاج في تفسير " خُفية " : ((أي اعتقدوا عبادته في أنفسكم؛ لأن الدعاء معناه العبادة)) (١٣) .

وقال الأزهري : ((وقد يكون الدعاء عبادة، ومنه قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ (١٤)، أي الذين تعبدون من دون الله)) (١٥) .

٢ ــ الطلب والسؤال :

وهذا المعنى يكثر استعماله في القرآن الكريم، ومن شواهده قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُم يا مُوسَى لَنْ نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ ... ﴾ (١٦) فالمعنى فاسأل ربك واطلب منه .

٣ ــ الاستغاثة والاستعانة :

ومن شواهد استعماله قوله تعالى : ﴿ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ ﴾ (١٧) .

قال الفرّاء : ((وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّنْ دُونِ اللهِ)) يريد آلهتكم، يقول : استغيثوا بهم؛ وهو كقولك للرجل : إذا لقيت العدو خالياً فادع المسلمين، ومعناه : فاستغث واستعن بالمسلمين)) (١٨) .

وقال ابن قتيبة في تفسير هذه الآية : ((أي ادعوهم ليعاونوكم على سورة مثله، ومعنى الدعاء هاهنا الاستغاثة، ومنه دعاءُ الجاهلية، ودعوى الجاهلية، وهو قولهم : يا آل فلان، وإنما هو استغاثهم)) (١٩) .

٤ ــ القول :

ومنه قوله عز وجل : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيْهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُم فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ﴾ (٢٠) .

قال أبو عبيدة في تفسير هذه الآية : ((دعواهم فيها : أي دعاؤهم أي قولهم وكلامهم)) (٢١) .

٥ ــ النداء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَائِيَ الَّذِيْن زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ (٢٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ (٢٣) . يقول الشوكاني في الفتح : ((الدعاء النداء إلى المحشر بكلام يسمعه الخلائق، وقيل هي الصيحة التي تسمعونها فتكون داعيةً لهم إلى الاجتماع في أرض المحشر ...)) (٢٤) .

٦ ــ الحثّ على الشيء والحضّ عليه .

ومن شواهد استعماله قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢٥)، وقوله ــ عز وجل ــ : ﴿ قَالَ رَبِ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (٢٦) . قال الراغب : ((... والدعاء إلى الشيء الحث على قصده)) واستشهد بآيات منها الآيتان السابقتان (٢٧) .

تلك أبرز معاني الدعاء في القرآن الكريم .

هذا وقد حظي الدعاء بعناية العلماء، فعرف تعريفات متعددة، تستهدف الكشف عن حقيقته ومعناه الشرعي . منها قول الخطابي (ت ٣٨٨هـ) ((ومعنى الدعاء : استدعاء العبد ربه ــ عز وجل ــ العناية، واستمداده إياه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة)) (٢٨) .

وعرّفه بعض المعاصرين بأنه : ((الابتهال إلى الله تعالى بالسؤال، والرغبة فيما عنده من الخير، والتضرع إليه في تحقيق المطلوب، وإدراك المأمول)) (٢٩) .

(جـ) أنواع الدعاء :

ويقسم العلماء الدعاء أقساماً متعددة باعتبارات متباينة . فيقسمونه من حيث معناه قسمين : دعاء العبادة والثناء ودعاء الطلب والمسألة (٣٠) . ووجه هذا التقسيم أن الرغبة والتوجه إلى المدعو يكون ــ كما يقول شيخ الإسلام رحمه الله ــ : ((تارة لذاته، وتارة لمسألته أمراً منه، وهذا كالشخص يدعو غيره، ويطلبه، ويقصده، تارة لذاته، وتارة لأمر يطلبه منه)) (٣١) .

والتوجه إلى المدعو بذاته هو المسمى بدعاء العبادة والثناء والذكر، والتوجه إلى المدعو لمسألته هو المسمى بدعاء المسألة والطلب (٣٢) .

والناظر في منهج القرآن في عرض آيات الدعاء بنوعيه : دعاء العبادة والثناء ودعاء الطلب والمسألة يلحظ مجئ الثناء تارة بين يدي الطلب كما في سورة الفاتحة، وقد يأتي في ثنايا الطلب كما في دعاء إبراهيم في سورتي البقرة وإبراهيم، وقد ينفرد أحدهما عن الآخر كما في سورة الإخلاص .

ولا يعني تقسيم الدعاء إلى عبادة وثناء وطلب ومسألة أنهما متضادان ((بل معناه أنه في تلك الحالة دلالته على أحد النوعين أظهر، ويدل على النوع الآخر إما بدلالة الالتزام أو بدلالة التضمن، فإذا أريد بالدعاء الطلب دل على العبادة والثناء بطريق التضمن؛ لأن الداعي دعاء الطلب والمسألة عابد لله تعالى بسؤاله ... وإذا أريد بالدعاء الثناء دل على دعاء الطلب بطريق دلالة الالتزام؛ لأن العابد لله تعالى كالذي يذكر الله مثلا هو في الحقيقة سائل وإن كان لا يأتي بلفظ السؤال كالذي يطوف على بعض الأبواب والأسواق ليدعو الناس يكون سائلا وإن حذف لفظ السؤال)) (٣٣) .

ويقسم العلماء الدعاء من حيث صيغته إلى طلبية وخبرية . والمراد بالطلبية ما يراد منها إنشاء الدعاء إيجاباً أو سلباً بصيغتي افْعَل أو لا تفعل . والخبرية ما كان الدعاء بجملة أو عدة جمل خبرية . وهي تتنوع من حيث طرفي الدعاء : الداعي والمدعو أو السائل والمسؤول إلى ثلاثة أنواع (٣٤) :

١ ـــ ما كان الدعاء بجملة أو عدة جمل خبرية تصف حال الداعي وحاجته وتضرعه بين يدي الله تعالى كقول موسى ـــ عليه السلام ـــ : ((رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)) (٣٥) .

٢ ـــ ما كان الدعاء بجملة أو عدة جمل خبرية تصف حال المدعو وتثني عليه .. كقوله تعالى :{ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَم يَكُن لَّهُ كَفُواً أَحَدٌ } .

٣ ـــ ما كان الدعاء بجملة أو عدة جمل خبرية تصف حالي الداعي والمدعو كدعاء ذي النون يونس ـــ عليه السلام ـــ : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الْظَّالِمِيْنَ ﴾(٣٦).ويقسمونه أقساما من حيث متعلقاته: الداعي والمدعو والمدعو به(٣٧)، وسأشير إلى بعض هذه الأنواع والأبلغ منها في ثنايا البحث .

وأشرع الآن في دراسة آيات الدعاء، مبتدئاً بما وقع عليه الاختيار من أدعية المؤمنين، مستعيناً بالله تعالى .

❁❁❁

المبحث الأول : من بلاغة دعاء المؤمنين

ذكر الله تعالى في مواطن متعددة من كتابه العزيز أدعية عباده المؤمنين الصالحين، وابتهالاتهم؛ لتعليمهم التوجه إلى الله ـــ عز وجل ـــ بالدعاء والثناء بما يليق بجلاله وعظمته . يقول صاحب نظم الدرر في تعليل ذلك : ((... فلقصورهم وعجزهم تولى الله الوكيل على كل شيء الإنباء عنهم بما كان يجب عليهم مما لا يبلغ إليه وسع خلقه، وجعل تلاوتهم لما أنبأ به على ألسنتهم نازلاً لهم منزلة أن لو كان ذلك النطق ظاهراً منهم، لطفاً بهم، وإتماماً للنعمة عليهم؛ لأنه تعالى لو وكلهم في ذلك إلى أنفسهم لم يأتوا بشيء تصلح به أحوالهم في دينهم ودنياهم؛ ولذلك لا يستطيعون شكر هذه النعمة إلا أن يتولى هو تعالى بما يلقنهم من كلامه مما يكون أداءً لحق فضله عليهم بذلك، وإذا كانوا لا يستطيعون الإنباء عن أنفسهم بما يجب عليهم من حق ربهم فكيف بما يكون نبأً عن تحميد الله وتمجيده ...)) (٣٨) .

وقد اشتملت تلك الأدعية على معان سامية، يتجلى فيها الإيمان بوحدانية الله والثناء على الله بما يليق بجلاله وعظمته، وتخصيصه بالطلب، كما تضمنت مطالب عالية، تجمع بين خيري الدنيا والآخرة منها :

- تعليم المؤمنين أن يتوجهوا إلى الله تعالى، يحمدونه، ويمجدونه، ويستعينون به، ويستهدونه، كما في سورة الفاتحة .
- ومنها تعليمهم أن يلجؤوا بضعفهم إلى ربهم في قوته، معلنين إيمانهم وطاعتهم، طالبين عفو الله وغفرانه ورحمته ونصره وتأييده، كما في خاتمة سورة البقرة ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ .. ﴾ (٣٩) الآيات .

وقد يتضمن دعاء المؤمنين الإيمان بحكمة خلق السموات والأرض، والضراعة إلى الله أن يبعدهم عن الخزي يوم القيامة كدعاء أولي الألباب في خاتمة سورة آل عمران ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَاختِلافِ اللّيلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ . الَّذِيْنَ يَذْكُرُونَ الله قِياماً وَقُعوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا باكِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ ﴾ ... الآيات .

- وقد يتضمن دعاء المؤمنين تعليمهم أن يلجأوا إلى حمى الرحمن ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته، ومن شرّ إبليس وأعوانه من شياطين الجن والإنس كما في سورتي الفلق والناس .

وفيما يأتي تحليل بلاغي لبعض هذه الأدعية المباركة؛ لنشير إلى شيء من مظاهر الإعجاز البياني فيها .

(أ) من بلاغة الدعاء في سورة الفاتحة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِيْنَ . الرَّحْمَنِ الرّحِيْم . مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ . صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلِّيْنَ ﴾.

لسورة الفاتحة أسماءٌ كثيرة منها : الحمد، لأن أولها بعد ــ بسم الله الرحمن الرحيم ــ لفظ " الحمد "، ومنها الشكر؛ لأنها ثناء على الله بالفضل والكرم والإحسان، ومنها الدعاء والسؤال وتعليم المسألة؛ لاشتمالها على ذلك، ومنها المناجاة لأن المصلي يناجي بها الرب فيجيب على ما ورد في حديث القسمة (٤٠) . وتعد هذه السورة أعظم سور القرآن كما صح به الخبر عن المصطفى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ . ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلى : ((لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن : الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)) (٤١) .

وغرضها ((إثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال، واختصاصه بالعبادة والاستعانة

والسؤال ...)) (٤٢) .

واشتملت آياتها الكريمة على نوعي الدعاء : دعاء الثناء والعبادة ودعاء الطلب والمسألة . فشطرها الأول يعلم الخالق عباده أن يتجهوا إليه بالحمد والثناء حمداً وثناءً يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العلى التي تفرد بها سبحانه وتعالى ((الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين ...)) .

وشطرها الآخر دعاء المسألة والطلب اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين))، ومجيء الثناء بين يدَي الطلب أدعى للإجابة، وهو من مظاهر التناسب والتناسق بين المعاني .

وإذا كانت البلاغة ((مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته))(٤٣) . أي أن مَرْجِعها إلى الدقة في ملاءمة الألفاظ للمعاني، ومدى القدرة على توظيف المباني لتجلية المعاني وإبرازها في الصورة المطلوبة؛ فإن القرآن الكريم هو المثل الأعلى المعجز لبلاغة الكلام، إذ تتعانق فيه صور الكلام مع المعاني والمضامين والأغراض وتتلاءم على وجه معجز لا يطمح إلى آفاقه فحول البلغاء .

وأول ما يتلقاك من بلاغة هذه السورة " حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال" (٤٤) .

فإن كان أولها " بسم الله الرحمن الرحيم " على قول من عدها من الفاتحة (٤٥)، فناهيك بذلك حسناً، إذ كان مَطْلَعُها مفتتحاً " باسم الله "، وإن كان أولها " الحمد لله " فحمد الله والثناء عليه بما هو له أهل، ووصفه بما له من الصفات العلية أحسن ما افتتح به الكلام)) (٤٦) .

أما " براعة الاستهلال " فقد استهل القرآن بالفاتحة فجاءت مشتملة على مقاصده . يقول السيوطيّ في الإتقان : ((ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى "براعة الاستهلال "، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله، والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مَطْلَع القرآن، فإنها مشتملة على جميع مقاصده ... فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في " براعة الاستهلال " مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة ...)) (٤٧) .

ومن بلاغة النظم (٤٨) الحذف في آية البسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " فالجار والمجرور " باسم الله " متعلق بمحذوف تقديره بسم الله أبدأ أو ابتدائي أو أقرأ أو أتلو على خلاف في نوع المحذوف وموطنه (٤٩) . ولا ريب في أن الحذف في الآية أبلغ من ذكر المحذوف ((فلقد تحقق بالحذف هنا إيجاز تأدى معه الغرض كاملاً دون إخلال بالمعنى . كما أن مع الحذف تصلح العبارة لأكثر من فعل (أو اسم) مقدر يختلف باختلاف الموقف الذي تتلى فيه الآية الكريمة)) (٥٠)

وإذا كان " الحمد والمدح أخوين " (٥١)، وكان معنى الشكر قريباً منهما، فما سرُّ إيثار " الحمد " عليهما

في قوله تعالى : { الحمد لله رب العالمين } وما دلالة هذا الاختيار القرآني ؟

إن قولنا : " المدح لله " أو " الشكر لله " ليس مساوياً لقوله تعالى : " الحمد لله رب العالمين "؛ لأن المدح أعمّ من الحمد، فقد يتوجه المدح إلى الحيّ وإلى غير الحيّ ... أما الحمد فلا يكون إلا للحي . كما أن المدح قد يكون قبل الإحسان، كما نرى في مدائح الشعراء لممدوحيهم، يبتغون بها نوالهم وإحسانهم . وقد يكون بعد الإحسان ووصول العطايا إليهم .. أما الحمد فلا يكون إلا عن إحسان وقع بالفعل . وهناك فرق بين الحمد وبين الشكر، إذ يرى المحققون أن الشكر يكون عن إحسان وقع للشاكر نفسه، وأما الحمد فأعمّ من أن يكون عن إحسان وقع للحامد أو وقع لغيره ... فكأن الحمد حق ثابت لله سبحانه، يجب على كل واحد القيام به أداءً لحق نعمه التي لا تُحصى .. فكلمة " الحمد لله " تعطي معنى الثناء على الله بسبب كل إنعام صدر منه ووصل إلى غيره . أما " الشكر لله " فتفيد معنى الثناء على الله بسبب إنعام وصل إلى ذلك القائل .. ولا شك أن الأول أفضل (وأبلغ) في هذا المقام ــ أعني مقام الدعاء والثناء والعبادة ــ

فكأن من صدر منه الحمد يقول لمولاه ــ جل جلاله ــ : سواء أعطيتني أو لم تعطني فإنعامك واصل إلى كل العالمين، وأنت مستحق للحمد العظيم (٥٢) .

وهذا مظهر من مظاهر الدقة والوضوح في اختيار الألفاظ في أسلوب القرآن الكريم . فالقرآن يراعي ما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالاتها، ويوظف كل لفظ بحيث يؤدي معناه في دقة فائقة، فكل لفظة في القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء؛ ولذلك دعا القرآن العظيم ألا يستخدم لفظ مكانَ آخر، فقال تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ (٥٣)،ويقول ابن عطية في تفسيره : ((كتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد)) (٥٤) .

وإذا كان القرآن يراعي الدقة في اختيار الألفاظ فإنه يراعي ذلك في تركيب الجمل ونظمها وبنائها؛ لتؤدي دلالات معينة لا تؤدى إلا بها . فالجملة القرآنية تركيب لا يسد غيره مسدّه، ومما يشهد لهذا ويؤكد صحته إيثار الجملة الاسمية على الجملة الفعلية في آية " الحمد لله رب العالمين " فما سر هذا الاختيار؟

بالتدبر وإنعام النظر وانطلاقاً من الفروق بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية نجد أن نظم الآية على ما هو عليه يؤدي دلالةً معينة تعجز صورُ التعبير الأخرى عن أدائها على وجهها الدقيق .

فنظم الآية ((يفيد أن الحمد ثابت لله تعالى، وأنه ــ سبحانه ــ كان محموداً قبل حمد الحامدين له، فسواء منهم حَمِدوا أو لم يَحْمِدوا فهو محمود من الأزل إلى الأبد، بحمده القديم وكلامه القديم .

وأما التعبير بالفعل (أحمد أو نحمد الله) فلا يفيد أكثر من الإخبار بحدوث الحمد من العبد لخالقه،

وما وراء ذلك من المعاني مسكوتٌ عنه ولا يمكن للفعل أن يدل عليه)) (٥٥) .

وانظر إلى دلالة تعريف " الحمد " على " استغراق أفراد الحمد والثناء وأنها مختصة بالرب سبحانه، وانسجامه مع الغرض العام للسورة الذي أشرت إليه .

قال القرطبي : ((والحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل والألف واللام لاستغراق الجنس فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه والثناء المطلق ...)) (٥٦)، وبناء على هذا فالمعنى ((لا يستحق الثناء الكامل والحمد التام الوافي إلا الله رب العالمين فهو الإله المنعوت بصفات الكمال المستحق لكل تمجيد وتعظيم وتقديس)) (٥٧) .

والمتأمل دلالة النعت المضاف " رب العالمين " يجد أن وصف المعبود بالربوبية في مقام الدعاء والثناء ((أقرب ــ كما يقول العلامة الألوسي ــ لدر ثدي الإجابة وأقوى لتحريك عرق الرحمة)) (٥٨) .

وتأتي آية " مالك يوم الدين " لتثبت صفة كمال لله تعالى تضاف إلى صفات الكمال السابقة " الرب " الرحمن، الرحيم، المالك " . والمولى ــ جل جلاله ــ مالك ومتصرف في الأيام كلها، وفي كل شيء، فما وجه تخصيص يوم الدين بالإضافة ؟ وما دلالته البلاغية ؟ .

والإضافة هنا ــ كما يقول المفسرون ــ ((لتعظيم ذلك اليوم أو تهويلهِ أو لبيان تفرده تعالى بإجراء الأمر فيه)) (٥٩) .

هذا والثناءُ على الله بتلك الصفات الجليلة بعد الدلالة على اختصاص الحمد به تعالى اقتضى خطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة؛ لهذا جاء النظم على هذه الصورة : ((إياك نعبد وإياك نستعين)) .
بالالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وبتقديم ما حقه التأخير وتكراره في الجملتين .

أما الالتفات (٦٠) فقد جرى الأسلوب في مطلع السورة على طريقة الغيبة ((الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين)) فكان مقتضى الظاهر أن يقال ((إياه نعبد وإياه نستعين)) لكن اقتضى مقام الدعاء العدول أو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب فقال : ((إياك نعبد وإياك نستعين))، وفي هذا الالتفات ما فيه من تعظيم شأن المعبود جل وعلا .

وقد بسط البلاغيون والمفسرون القول في بيان بلاغة هذا الالتفات . يقول الزمخشري : ((لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه؛ ليكون الخطاب أدلّ على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به)) (٦١) . وقيل ((إن الكلام من أول السورة إلى هنا ثناء والثناء في الغيبة أولى، ومن هنا إلى آخر السورة دعاء وهو في الحضور أولى ...)) (٦٢) . وقيل أيضاً ((إن المعاني السابقة من حمد الله والثناء عليه

وذكر ربوبيته للعالمين ورحمته الغامرة وملكه ليوم الدين تحث النفوس على الإقبال نحو الحق، متجهة إليه، معلنة وحدانيته بالعبادة والاستعانة . وهكذا يكون الالتفات هنا مشيراً إلى تصاعد الإحساس بالجلال حتى تخلص النفس في مراحل عروجها من شؤونها الأرضية فتشافه الحق، وتعلن هناك غاية العبودية والاستسلام)) (٦٣) .

وأما تقديم الضمير المنصوب وتكراره فللدلالة على الاختصاص والقصر، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب، والمعنى : ((نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ونخصك بالاستعانة لا نستعين غيرك)) (٦٤) . ويشهد لصحة هذا المعنى قول ابن عباس رضي الله عنهما : ((معناه نعبدك ولا نعبد غيرك)) (٦٥) . وللتقديم في الآية دلالة أخرى هي الاهتمام والعناية بالمقدم . يقول البلاغيون : ((ويفيد التقديم وراء التخصيص اهتماماً بشأن المقدم ولهذا قدر المحذوف في قوله : (بسم الله) مؤخراً))(٦٦) وذلك بياناً لاهتمام الموحِّد بالاسم الكريم، ورداً على المشركين الذين كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون : باسم اللات أو باسم العزى (٦٧) .

وهذا مظهر من مظاهر القوة في لغة القرآن، إذ نجد تقديم كلمة عن مكانها يُعطي للجملة دلالة جديدة في إيجاز واختصار وتركيز دون أن نضيف إلى الجملة ألفاظاً زائدة كي تؤدي هذه الدلالة الإضافية .

إن الفرق شاسع بين العدول أو الانزياح ممثلاً في الأداء القرآني ((إياك نعبد وإياك نستعين)) وبين ((نعبدك ونستعينك)) هو الفرق بين الإعجاز وبين كلام متعارف الأوساط كما تقول البلاغة .

هذا وقد وافق البلاغيون وكثير من المفسرين الزمخشريَّ فيما ذهب إليه من أن التقديم في مثل آية الفاتحة للتخصيص، وخالفه أبو حيان الذي يقول : ((والتقديم على العامل عنده ــ يعني الزمخشري ــ يوجب الاختصاص وليس كما زعم . قال سيبويه ــ وقد تكلم على " ضربت زيدا " ما نصه : وإذا قدمت الاسم فهو عربي جيد كما كان ذلك ــ يعني تأخيره ــ عربيا جيدا، وذلك قولك " زيدا ضربت " والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء مثله في " ضرب زيد عمراً و ضرب زيدا عمرو "، ثم قال أبو حيان بعد ذلك في آية " إياك نعبد " : ((والزمخشري يزعم أنه لا يقدم على العامل إلا للتخصيص فكأنه قال : ما نعبد إلا إياك، وقد تقدم الرد عليه في تقديره " باسم الله أتلو "، وذكرنا نص سيبويه هناك، فالتقديم عندنا إنما هو للاعتناء والاهتمام بالمفعول ...)) (٦٨) .

وضعّف الأستاذُ الدكتور " أبو موسى " حجةَ " أبي حيان " لرفض كلام " الزمخشري "وعلل ذلك بأنه ((لا يحتج برأي على رأي، ولا يرى في كلام سيبويه ما يعارض كلام الزمخشري؛ لأن سيبويه يثبت العناية والاهتمام لدلالة صورة التقديم، وهذه العناية لا تعني أن الصورة لا تفيد التخصيص، لأنه لا منافاة بينهما، والنكات لا تتزاحم، وليس في كلام سيبويه ما يرفض دلالة الاختصاص كما أنه ليس في كلام الزمخشري ما يرفض دلالة العناية والاهتمام ...)) (٦٩) .

وأقول : إن ما ذكره الأستاذ هو الصواب، ويشهد لصحته ما ذهب إليه البلاغيون وأكثر المفسرين من أن

التقديم في هذه الآية وما ماثلها يفيد وراء التخصيص اهتماماً بشأن المقدم كما أسلفت .
هذا وإذا كانت الواو لمطلق الجمع ولا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً فليس معنى ذلك أن الآية القرآنية تجمع بين معطوفات على غير ترتيب ولا نظام، كتقديم العبادة على الاستعانة في هذه الآية ــ أعني " إياك نعبد وإياك نستعين " وقيل في تعليل ذلك وجوه منها إن العبادة أهمُّ فهي مما يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، ومنها أنها وسيلة فتقدم في طلب الحاجة لأنه أدعى للإجابة (٧٠) .

وإطلاق الاستعانة في هذه الآية " إياك نستعين " ليتناول كل مستعان فيه فالحذف هنا مثله في قولهم : " فلان يعطي " في الدلالة على العموم (٧١) .

واستحسن صاحب الكشاف التقييد بالعبادة . قال : ((والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله : " اهدنا ... " بيانا للمطلوب من المعونة، كأنه قيل : كيف أعينكم ؟ فقالوا : " اهدنا الصراط المستقيم "، وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض)) (٧٢) .

ورجّح غيره الإطلاق لأسباب منها ((أن عموم المفعول متضمن لنفي الحول والقوة عن نفسه والانقطاع بالكلية إليه تعالى عمن سواه، فهو أولى بمقام العبادة)) (٧٣) .

وتأتي الآيتان الأخيرتان من هذا النص الكريم في غاية التناسب والتناسق يطلب العبد فيها من ربه الهداية إلى الصراط المستقيم بعد أن وضع بين يدي هذا الطلب ذلك الثناء البليغ .
يقول ابن القيم : ((إن الدعاء الذي يتقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد ...)) (٧٤) .

" اهدنا الصراط المستقيم " يقول المفسرون : الهداية هي الإرشاد والتوفيق أو الإلهام أو الدلالة، والمعنى دلنا وأرشدنا ــ يا رب ــ إلى طريقك المستقيم ودينك الحق، وثبتنا على الإسلام الذي بعثت به أنبياءك ورسلك . والمراد بطلب الهداية ، الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك (٧٥)
قال الطبري : ((أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ... ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه)) (٧٦) .

وتأسيساً عليه فالصراط المستقيم في الآية مستعار (٧٧) لدين الإسلام، وهو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره، وإيثار الصراط جار على الطريقة القرآنية المفضلة في أسلوب القرآن وهي التعبير عن المعاني بالصورة المحسوسة بهدف البيان والإيضاح والتأثير .

والناظر بعين البلاغة يتذوق جمال الفصل في هذه الآية . فقد فصلت جملة "اهدنا الصراط المستقيم " عن جملة " وإياك نستعين "، وأرجع بعض المفسرين هذا الفصل إلى شبه كمال الاتصال (٧٨) أو لكمال الاتصال

(٧٩) . أما الأول ((فعلى تقدير عموم الاستعانة والصراط وخصوصهما يكون اهدنا بيانا للمعونة المطلوبة كأنه قال : كيف أعينكم في المهمات أو في العبادة فقالوا : اهدنا طريق الحق في كل شيء أو ملة الإسلام، وأما الثاني فعلى " تقدير عموم الاستعانة وخصوص الصراط يكون اهدنا إفرادا للمقصود الأعظم من جميع المهمات...)) (٨٠) .

والذي يبدو لي أن سبب الفصل راجع إلى كمال الانقطاع (٨١) الواقع بين طبيعة الجملتين؛ فالأولى جملة خبرية والثانية جملة إنشائية طلبية .

ولئن كان " صراط الذين أنعمت عليهم " بدلاً من الصراط الأول فما فائدته وما قيمته البلاغية ؟ يقول الزمخشري : ((فائدته لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده . كما تقول : هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ؟ فلان، فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك : هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل، لأنك ثنيت ذكره مفصلا ثانيا، أوقعت فلانا تفسيراً وإيضاحاً للأكرم الأفضل فجعلته علما في الكرم والفضل، فكأنك قلت من أراد رجلا جامعا للخصلتين فعليه بفلان، فهو الشخص المعين لاجتماعهما فيه، غير مدافع ولا منازع)) (٨٢) .

والناظر بحاسة الذوق تروقه وتؤنسه بلاغة الإسناد وملاءمته لجو العبادة وموقف الدعاء والمسألة في قوله تعالى : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

فأسند أولا الإنعام إليه صراحة فقال : " أنعمت " ببناء الفعل للمعلوم والإتيان به ماضيا، لأن الغرض ((طلب الهداية إلى صراط من ثبت إنعام الله تعالى عليه وتحقق)) (٨٣) .

وعدل ثانياً عن إسناد الغضب والإضلال إليه لفظا فلم يقل : ((غير الذين غضبت عليهم أو الذين أضللتهم؛ لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى، فإن من طلب منه الهداية ونسب إليه الإنعام لا يناسب نسبة الغضب إليه؛ لأنه مقام تلطف وترفق وتذلل لطلب الإحسان فلا يناسب مواجهته بوصف الانتقام)) (٨٤) .

وهذا الأسلوب كثير في كتاب الله، جار على منهج القرآن في نسبة الخير إلى الله تعالى دون الشر، كما في قوله تعالى في سورة الشعراء ــ حكاية عن إبراهيم عليه السلام ــ ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَآؤكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِيْنَ . الَّذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِيْنِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٨٥) .

فأسند النعم إلى الله، ممثلة في الخلق والهداية والإطعام والسقيا، وأسند المرض إلى نفسه، إذ هو معنى نقص ومعابَة، وليس من جنس النعم المتقدمة . وكآية الجن : ﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ (٨٦) .

وعدّ ابن الأثير وغيره هذا الأسلوب في الآية ــ أعني بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله ــ التفاتاً

من الخطاب إلى الغيبة لتعظيم شأن الرب تبارك وتعالى (٨٧) .

هذا وكما بدأت هذه السورة الكريمة بحسن الابتداء فقد ختمت بحسن الانتهاء فجاءت الآية الأخيرة " صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين " تفصيلاً لجملة المطلوب " اهدنا الصراط المستقيم " ((لأن المطلوب هو الإيمان المحفوظ من المعاصي المسببة لغضب الله والضلال، ففصّل جملة ذلك بقوله " الذين أنعمت عليهم " والمراد المؤمنون، ولذلك أطلق الإنعام ولم يقيده ليتناول كل إنعام، لأن من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان فقد أنعم الله عليه بكل نعمة لأنها مستتبعة لجميع النعم . ثم وصفهم بقوله " غير المغضوب عليهم ولا الضالين " يعني أنهم جمعوا بين النعم المطلقة وهي نعمة الإيمان وبين السلامة من غضب الله تعالى والضلال المسببين عن معاصيه وتعدِّي حدوده)) (٨٨) .

ومن بلاغة هذه السورة وجمالها عذوبة الجرس وحلاوة الإيقاع وتناسبه مع موقف الدعاء، ويتمثل ذلك في جمال المدود والحركات ونظم الفواصل ودقة اختيارها، وأدائها لوظيفتها الدلالية والإيقاعية الصوتية خير أداء . فمن حيث المعنى جاءت الفاصلة في كل آية من آيات هذه السورة الكريمة متمكنة مطمئنة غير نافرة ولا قلقة، مناسبة لما قبلها، يكتمل بها معنى الآية بحيث لو حذفت أو غيرت لاختل المعنى . تأمل فاصلة الآيتين : الأولى والثالثة من هذه السورة " الرحيم " فقد تقدمتها صفة أخرى لله تعالى هي " الرحمن "، وإذا كان " الرحمن " أبلغ ويلزم من حصول الأبلغ حصول الأدنى فما فائدة هذه الفاصلة؟

لقد فرق كثير من المفسرين بين هذين الوصفين " الرحمن الرحيم " ومن أوائلهم " الطبري " الذي رد قول من لم يفرق بينهما، وقال : ((بل لكل كلمة منهما معنى لا تؤدي الأخرى منهما عنها)) وقال أيضاً : ((إنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه)) (٨٩) يعني المؤمنين .

ومنهم الزمخشري الذي قال : ((لما قال " الرحمن " فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها أردف " الرحيم " كالتتمة والرديف ليتناول ما دق منها ولطف)) (٩٠) .

وقيل في الفرق بينهما غير ما ذكرنا (٩١) . وهكذا فهاتان الفاصلتان وسائر الفواصل في هذه السورة وغيرها من سور القرآن يرتبط معناها بمعنى الآية قبلها فهي تؤدي جزءا من معنى الآية ينقص بنقصانها . هذا من حيث الوظيفة الدلالية للفواصل في هذا النص الكريم .

أما من حيث الإيقاع أو الجرس فبكل فاصلة يكتمل التناسق الصوتي الإيقاعي للآية . فهذه السورة ذات روي متقارب، فقد تألفت حروف روى فواصلها من حرفين: " الميم " في ثلاث آيات " الرحيم، الرحيم، المستقيم " والنون في أربع آيات " العالمين، الدين، نستعين، الضالين "، وجميعها يوقف عليها بالسكون مسبوقا بحرف مد هو " الياء " وذلك مظهر لوحدة الجرس في حرف الروى وما قبله؛ لأن للسكون بعد المد وقعا وأثرا

يرتاح له السمع . هذا بالإضافة إلى مدود أخرى قبل الفواصل في " الله، الرحمن، مالك، الصراط، المغضوب ... " وهذه المدود جميعها مع الفواصل تكسب التنغيم هدوءاً وامتداداً يصور جو الدعاء ويناسب موقف الخشوع والتضرع والمناجاة، والله أعلم .

(ب) من بلاغة خاتمة سورة البقرة

قال الله تعالى : ﴿ آمَنَ الرّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْه مِن رَّبّه وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بالله وَمَلائكَته وَكُتُبه وَرُسُله، لاَ نُفرقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّنْ رُّسُلِه وَقَالُواْ سَمعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصيْرُ . لاَ يُكَلّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَاكَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لاَ تُؤَاخذْنَآ إن نَّسينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلاَ تحْملْ عَلَيْنَا إصْرَاً كَمَا حَمَلْته عَلَى الَّذيْنَ منْ قَبْلنَا، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ، واعْفُ عَنَّا وَاغْفرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافرِيْنَ ﴾ (٩٢) .

لئن كان الدعاء في سورة فاتحة الكتاب خبراً من الله ــ سبحانه وتعالى ــ بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاداً وتعليماً لعباده المؤمنين أن يتجهوا إليه تعالى بالدعاء بما يليق بجلاله وعظمته ــ لئن كان هذا هكذا كما أسلفت ففي خاتمة سورة البقرة يلجأ المؤمنون بضعفهم إلى ربهم في قوته، معلنين إيمانهم واستجابتهم وطاعتهم، طالبين أن يسبغ عليهم عفوه وغفرانه ورحمته، متضرعين إليه ــ جل وعلا ــ برفع الأغلال والآصار وطلب النصرة على الكفار .

وهذا الدعاء الخاشع الضارع حسن ختام وبراعة مقطع لسورة البقرة التي تعد أطول سور القرآن الكريم .

وأول ما نلحظه في هذا الدعاء تناسقه مع مطلع السورة، وما تضمنته من معان وموضوعات . فقد افتتحت بأوصاف المتقين المؤمنين : ﴿ الم، ذلكَ الْكتَابُ لاَ رَيْبَ فيه هُدَىً للْمُتَّقيْنَ . الَّذيْنَ يُؤْمنُونَ بالْغَيْب وَيُقيْمُونَ الصَّلاَةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفقُونَ . وَالَّذيْنَ يُؤْمنُونَ بما أُنْزلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزلَ منْ قَبْلكَ وَبالآخرة هُمْ يُوقنُونَ . أُوْلئكَ عَلَى هُدًى مّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ ﴾ (٩٢) . وختمت بدعائهم : ﴿وَقَالُوا سَمعْنَا وَأَطَعْنَت غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصيْرُ . لاَ يُكَلّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لاَ تُؤَاخذْنَآ إن نَّسيْنَآ أَوْ أَخْطَأْنَا....﴾ الآية .

واشتملت السورة على كثير من التكاليف والأحكام التشريعية في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وغيرها، وختمت بتصديق النبي والمؤمنين بجميع ذلك : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ... ﴾.

وتأمل روعة النظم في قوله : ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ فقد

اقتضت البلاغة القرآنية الإيجاز بحذف الفعل والتقدير " يقولون لا نفرق " ووازن في كفتي ذوقك الحذف بالذكر لتجد الفرق بينهما، والإيجاز من مظاهر القوة في الأساليب .

وانظر إلى براعة النظم والترتيب في قوله : ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ فقدم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران، ((لأن تقديم الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول)) (٩٣) . وحذف ما يقتضي الحذف، كمفعول سمعنا أي "سمعنا أمرك"، وكحرف النداء في جملة النداء الاعتراضية "ربنا" وإيثار نداء " الرب مع الإضافة إليه وملاءمتها لموقف الدعاء لما توحيه من ((الإلحاح في التضرع والابتهال والجؤار)) (٩٤) ولأن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية كما سيأتي بيانه .

ثم ختمت الآية بجملة " وإليك المصير" بتقديم الخبر لإفادة الاختصاص والحصر أي : الرجوع بالموت والبعث إليك لا إلى غيرك، والجملة تذييل لما قبلها ((مقرر للحاجة إلى المغفرة)) (٩٥) .

ويشرع السياق في الآية الثانية الأخيرة يحكي بقية دعاء الرسول والمؤمنين بعد أن بين في صدرها سرّ التكليف وقانون التشريع " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " أي لا يكلف المولى ـــ سبحانه وتعالى ـــ أحدا فوق طاقته فلكل نفس ((ثواب ما كسبت من الخير، وعليها وزر ما اكتسبت من الشر)) (٩٦) . وهذا من مقتضى عدله تعالى ولطفه بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم .

وانظر بعين البلاغة والذوق في قوله : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ وما في هذه الصياغة من تناسق وقوة وإعجاز، فقد تقدم الجار والمجرور " لها وعليها " على الفعلين لإفادة الاختصاص والحصر أي أن ذلك لها لا لغيرها وعليها لا على غيرها)) (٩٧) .

والحظ التناسب المعنويّ بالتضاد بين " لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " فاللام للملك المؤذن بالانتفاع، وعلى للاستعلاء المؤذن بالتحمل والضرر، والفعل الأول يختص بالخير، والفعل الثاني يختص بالشر ((لأن الاكتساب فيه (احتمال) واعتمال والشر تشتهيه النفس (الأمارة) وتنجذب إليه فكانت أجدّ في تحصيله وأعمل بخلاف الخير)) (٩٨) . والتقديم والتضاد من عوامل القوة في الأسلوب .

وانظر إلى خاتمة هذا الدعاء وما تضمن من تعليمه تعالى لعباده كيفية دعائه وطلبه ((وهذا من غاية الكرم ونهاية الإحسان يعلمهم الطلب ليعطيهم، ويرشدهم للسؤال ليثيبهم)) (٩٩) .

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

دعاء يصور حال المؤمنين مع ربهم وإدراكهم لضعفهم وحاجتهم إلى رحمة ربهم وعفوه وغفرانه ونصره ((في (نغمة) وادعة واجفة تصور بإيقاعاتها وجيب القلب ورفرفة الروح)) (١٠٠) .

ومن بلاغة هذا الدعاء الصاعد إلى السماء إيجاز الحذف أي قولوا ربنا، وتكرار لفظ " ربنا " بحذف

حرف النداء الدال على شعور الداعي بقربه من ربه، وفي هذا التكرار البليغ المضاف إلى الداعين إلحاح يقتضيه مقام الدعاء والتضرع واللجوء والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى .

والمعنى الحسي للإصر ((العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه مكانه ... استعير للتكليف الشاق ...)) (١٠١) .

والاستعارة أبلغ؛ لأنها أوجز وأخصر فهي لفظة واحدة والتكاليف الشاقة لفظتان على ما في الإصر من تصوير وتشخيص للتكاليف الشاقة .

وتأمل جمال الترتيب في تكرار الدعاء بالنهي أولا المصدّر بنداء " ربنا "، وتكرار الدعاء بالأمر الدعائي ثانيا " واعف عنا واغفر لنا وارحمنا " . " ولم يأت في هذه الجمل الثلاث بلفظ " ربنا " لأنها ((نتائج ما تقدم من الجمل التي افتتحت بذلك ...)) (١٠٢) .

وسلاسة هذه الجمل " واعف عنا واغفر لنا وارحمنا " ورشاقتها وعذوبتها وما توحيه من لهفة العبد على التوبة والرحمة والرجوع إلى ربه لا تخفى على صاحب الذوق السليم .

(جـ) دعاء أولي الألباب في خاتمة سورة آل عمران

قال الله تعالى: ﴿ إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوات وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَاب . الَّذِيْنَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوْدَاً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّموات والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار . رَبَّنَا إنّكَ من تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيَاً يُنَادِي لِلإِيْمَانِ أَنْ آمنوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مّنْكُم مّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُم مّن بَعْضٍ فَالّذِيْنَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُذُوا فِي سَبِيْلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفّرَنّ عَنْهُمْ سَيئاتِهُمْ وَلأُدْخِلَنّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ ثواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ والله عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (١٠٣) .

لئن توجه المؤمنون إلى ربهم في الدعاء الآنف معلنين إيمانهم، طالبين منه النصر والعفو والغفران، فإنهم في خاتمة هذه السورة يؤكدون حكمة خلق السموات والأرض، ويتضرعون إلى الله أن يكفر عنهم سيئاتهم، وأن يقيهم عذاب النار .

ويأتي هذا الدعاء الخاشع في سياق التنويه بأولى الألباب من المؤمنين، وما أعد لهم من ثواب بعد الحديث الطويل عن المعاندين من أهل الكتاب والمنافقين ومواقفهم من المؤمنين، ((ويبرز من صفاتهم صفة الخشوع التي تتناسق مع مشهد أولى الألباب أمام كتاب الكون المفتوح ودعائهم الخاشع المنيب ...)) (١٠٤) .

ولما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ اختصاصه بالملك العظيم والقدرة الكاملة في الآية السابقة ((ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير)) (١٠٥) . أكد اختصاصه بذلك بقوله : " إن في خلق السموات والأرض ... الآية " وجاء هذا التقرير على سبيل التأكيد " اعتناء بتحقيق مضمون الجملة " . وورد اسم " إن " المؤخر " لآيات " منكرا " للتفخيم كما وكيفا أي لآيات كثيرة عظيمة لا يقدر قدرها " وفي قوله " يتفكرون في خلق السموات والأرض " بعد قوله : " إن في خلق السموات والأرض " إظهار في موضع الإضمار ((لإبراز كمال العناية ببيان حالهم والإيذان بكون تفكرهم على وجه التحقيق والتفصيل ...)) (١٠٦) .

والمتذوق لبلاغة هذا النص يروقه الإيجاز بالحذف في قوله : " ربنا ما خلقت هذا باطلا " أي يقولون ذلك بمعنى يتفكرون قائلين (١٠٧) . وفي هذا الحذف إيحاء بأن تفكير أولى الألباب ((قد أسلمهم مباشرة إلى التصديق بأن هذا الخلق لم يكن باطلا، وإنما لحكمة .. وإقحام هذا الفعل المحذوف يقلل من الإيحاء بهذه السرعة في إدراك الحقيقة والاعتراف بها)) (١٠٨) . وإيثار نداء " الرب " لما مر من أن إجابة الدعاء من مقتضى الربوبية .

وإظهار النار في موضع الإضمار في قولهم " ربنا إنك من تدخل النار ... " بعد قولهم : " ... فقنا عذاب النار " لتهويل أمرها . وذكر الإدخال في مورد العذاب لتعيين كيفيته وتبيين فظاعته . وفي قوله " وما للظالمين من أنصار " إظهار في موضع

الإضمار فقد ((وضع الظالمين موضع المدخلين؛ لذمهم والإشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم ووضعهم الأشياء في غير مواضعها ..)) (١٠٩) .

ويتوالى ابتهال أولي الألباب، فلما دعوا ربهم في الآيتين السابقتين أن يقيهم عذاب النار والخزي والهلاك توسلوا بذكر مسارعتهم إلى إجابة الداعي " وهو الرسول ـ ﷺ ـ طالبين عفو ربهم وغفرانه ((ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار)) .

وتأمل بلاغة النظم في هذا الدعاء، فقد افتتح بالنداء المكرر ((لإظهار كمال الضراعة والابتهال)) (١١٠) وأخبروا عن سماعهم داعي الإيمان على سبيل التأكيد " إننا سمعنا مناديا :، لأنه ((لما كانت حالهم ـ لمعرفتهم بأنهم لا ينفكون عن تقصير وإن بالغوا في الاجتهاد، لأنه لا يستطيع أحد أن يقدر الله حق قدره ـ شبيهةً بحال من لم يؤمن، اقتضى المقام التأكيد إشارة إلى هضم أنفسهم بالاعتراف بذنوبهم فقالوا ـ مع علمهم ـ بأن المخاطب عالم بكل شيء " إننا .. " فأظهروا النون إبلاغا في التأكيد)) (١١١) . والمنادِى هو الرسول ـ ﷺ ـ، وأوثر على الداعي ((للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى الداني والقاصي؛ لما فيه من الإيذان برفع الصوت ....)) ويتذوق العلامة " أبو السعود " بلاغة النظم في هذه الجملة ((إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان)) ويبين قيمة هذا التعبير وأثره في الإمتاع والإقناع فيقول : ((... وهذا أسلوب بديع

يصار إليه للمبالغة في تحقيق السماع والإيذان بوقوعه بلا واسطة عند صدور المسموع عن المتكلم وللتوسل إلى تفصيله، واستحضار صورته، وقد اختص النظم الكريم بمزية زائدة على ذلك، حيث عبر عن المسموع منه بالمنادى، ثم وصفه بالنداء للإيمان على طريقة قولك : سمعت متكلما يتكلم بالحكمة، كما أن التفسير بعد الإبهام والتقييد بعد الإطلاق أوقع عند النفس وأجدر بالقبول)) (١١٢) .

ويوضح صاحب الكشاف دلالة تنكير المنادي وسر تقييده بعد إطلاقه فيرى أن في ذلك ((تفخيماً لشأن المنادي لأنه لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان)) (١١٣) .

ومما يسترعي نظر الباحث تكرار النداء في هذا الدعاء وغرضه البلاغي الاسترحام والاستعطاف والتضرع وإظهار كمال الخضوع والاعتراف بربوبية الله تعالى مع الإيمان به .

والمراد بالذنوب في هذه الآية الكبائر وبالسيئات الصغائر، وقيل غفران الذنوب وتكفير السيئات أو قريب بعضه من بعض، فالغفران والتكفير بمعنى الستر والذنوب والسيئات بمعنى، وجمع بينهما تأكيدا ومبالغة، وليكون في ذلك إلحاح في الدعاء (١١٤) .

ويختم أولو الألباب دعاءهم باستنجاز وعد الله تعالى وثوابه والاستعفاء من الخزي يوم القيامة وعذابه ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد ﴾ وهذا الابتهال ((يدل على شدة الخوف من هذا الخزي، وشدة تذكره واستحضاره في مطلع الدعاء وفي ختامه، مما يشي بحساسية هذه القلوب ورقتها وشفافيتها وتقواها وحيائها من الله)) (١١٥) .

ومن بلاغة هذه الآية الإيجاز بالحذف في قوله " على رسلك " والتقدير على ألسنة رسلك، وقيل تقديره على تصديق رسلك، وقيل ما وعدتنا منزلا على رسلك أو محمولا على رسلك، لأن الرسل يحملون ذلك والموعود هو الثواب وقيل النصرة على الكفار (١١٦) .

وآثر القرآن جمع الرسل مع أن المنادِي هو الرسول ﷺ وحده ((لما أن دعوته ــ عليه الصلاة والسلام ــ لا سيما في باب التوحيد وما أجمع عليه من الشرائع منطوية على دعوة الكل فتصديقه تصديق لهم ــ عليهم السلام ــ وكذا الموعود على لسانه من الثواب موعود على ألسنة الكل، وإيثار الجمع لإظهار كمال الثقة بإنجاز الموجود بناء على كثرة الشهود)) (١١٧) .

وتأتي ثمرة هذا الدعاء الخاشع ((فاستجاب لهم ربهم أنّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب)) . ومن بلاغة هذه الآية إيثار لفظ "الرب" وإضافته إلى ضمير الداعين، وهذه الإضافة لتشريفهم وإظهار اللطف بهم .

ومن بلاغة الآية الالتفات من الغيبة إلى التكلم والخطاب في قوله " فاستجاب لهم ربهم أنّي لا أضيع عمل عامل منكم ... " وذلك " لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة، وتشريف الداعين بشرف الخطاب، والمراد تأكيدها

ببيان سببها والإشعار بأن مدارها أعمالهم التي قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء .

((والتعبير عن ترك الإثابة بالإضاعة مع أنه ليس بإضاعة حقيقة إذ الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها — لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من القبائح، وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه)) (١١٨) .

وفي قوله : " فالذين هاجروا وأخرجوا ... " إطناب فهو ((تفصيل لما أجمل في العمل، وتعداد لبعض محاسن أفراده على وجه المدح والتعظيم، أي فالذين هجروا الشرك أو الأوطان أو العشائر للدين)) (١١٩) .

وفي قوله : " لأكفرن عنهم سيئاتهم " إيجاز بحذف القسم، والتقدير " وعزتي وجلالي لأكفرنّ " وكذلك في حذف المسند إليه وبناء الأفعال " أخرجوا، وأوذوا وقتلوا " للمجهول، وهذا الحذف يوحي بالسخرية والاحتقار لأولئك الكفار المشركين الذين ألحقوا الأذى بالمؤمنين .

وفي قوله ﴿ ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ مجاز عقلي (١٢٠) علاقته المكانية فقد أسند الجري للأنهار، وهي أمكنة للمياه وليست هي الجارية بل الجاري ماؤها، وهذا الأسلوب أبلغ وأوجز مما لو قيل في غير القرآن " تجري من تحتها مياه الأنهار " .

وفي قوله ﴿ ثوابا من عند الله، والله عنده حسن الثواب ﴾ ((تصدير أورد العجز على الصدر)) (١٢١)، وهو أن يتقدم في الكلام ما يشير إلى الفاصلة وهو لفظ " ثوابا " في قوله : " ثوابا من عند الله " . وهو من أساليب التناسب والتلاحم والارتباط المعنوي واللفظي بين الفاصلة وما قبلها في الآية . وفي قوله : " والله عنده حسن الثواب " تذييل جار مجرى المثل، وهو من صور الإطناب يفيد ما قبله توكيدا وتقوية .

هذا ولا يفوت الناظر في بلاغة هذا الدعاء أن يشير إلى جمال الإيقاع الصوتي وعذوبته وتناسبه وموقف الدعاء، فالوقوف بالسكون على حروف روى الفواصل " الألباب، ثواب، الأبصار، النار " قرار " المسبوقة بحروف مد في هذه الفواصل وما قبلها من كلمات يحدث جرساً يهز المشاعر، ويجذب القلوب، ويبعث في النفس الرقة والخشوع ((ويمنح الدعاء رنة رخية، وعذوبة صوتية، تناسب جو الدعاء والتوجه والابتهال)) (١٢٢) .

❋ ❋ ❋

المبحث الثاني : من بلاغة دعاء الأنبياء والمرسلين

لئن ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أدعية عباده المؤمنين الصالحين كما أشرت في المبحث الأول فقد حكى ــ جل وعلا ــ في كتابه العزيز أدعية بعض أنبيائه ورسله، أخبر فيها بدعواتهم وتضرعهم وابتهالاتهم منذ آدم ــ عليه السلام ــ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ يتجلى فيها الإيمان المطلق بالله تعالى، وصدق التوجه إليه تعالى، وحسن الأدب مع الله في الخطاب، وحسن عرض الحوائج والرغائب، وقد اشتملت على المطالب العالية من خيري الدنيا والآخرة ومنها :

- طلب الرحمة والمغفرة، كدعاء آدم ــ عليه السلام ــ : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ ﴾ (١٢٣)، وكدعاء خاتم المرسلين محمد ﷺ : ((ربِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِيْنَ)) (١٢٤) .
- ومما تضمنه دعاء الأنبياء والمرسلين طلب ما يعينهم على تبليغ دعوتهم، وأداء رسالتهم، وعبادة ربهم، كدعاء موسى ــ عليه السلام ــ ((قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي . واحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . واجْعَل لِّي وَزِيْراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا . إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيْرًا)) (١٢٥) . وكدعاء خاتم المرسلين : ((ربِّ زِدْنِي عِلْماً)) (١٢٦) .
- وقد يتضمن الدعاء مطلبا خاصا، كدعاء إبراهيم ــ عليه السلام ــ ((ربِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ...)) (١٢٧) . وكدعاء سليمان ــ عليه السلام ــ : ((ربِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)) (١٢٨) . وكدعاء زكريا ــ عليه السلام ــ : ((قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِي من وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)) (١٢٩) .

وقد وردت هذه الأدعية في أسلوب بليغ معجز . ويطيب لي أن أتناول بعضاً منها؛ لأشير إلى شيء من مظاهر الإعجاز البياني فيها .

(أ) دعاء " إبراهيم " عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيِّ أَنْ نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيْراً مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيْمٌ . رَبَّنَّا إِنِّيَ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ

لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ من شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي الْسَّمَاءِ . الْحَمْدُ للهِ الَّذي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيْعُ الْدُّعَآءِ . رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيْمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ . رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالَدِيَّ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (١٣٠) .

ورد دعاء إبراهيم ــ عليه السلام ــ في سور متعددة (١٣١) من القرآن الكريم منها سورة إبراهيم .

ويأتي هذا الدعاء الخاشع في هذه السورة في سياق تعداد نعم الله تعالى على البشر، وتقدّم هذه الآيات الكريمة " إبراهيم الخليل " نموذجاً لشكر النعمة بعد أن عرض السياق التعجيب من المكذبين لرسالة الرسول ــ ﷺ ــ من قريش الذين أنعم الله عليهم فيما أنعم برسول يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويدعوهم لغفران الله ورحمته ورضوانه فإذا هم يكفرون النعمة، ويستبدلون بها الكفر، ويؤثرونه على دعوة الإيمان، ويقودون قومهم إلى دار البوار كما قاد من قبلهم من الأمم أتباعهم إلى النار .

ويصور ذلك الدعاء " إبراهيم " ــ عليه السلام ــ ((إلى جوار بيت الله الذي بناه بأمر الله لعبادة الله في ذلك البلد الذي آل إلى قريش فإذا بها تكفر فيه بالله، ليرد الجاحدين إلى الاعتراف، ويرد الكافرين إلى الشكر، ويرد الغافلين إلى الذكر، ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويهتدون ...)) (١٣٢) .

وفي هذا الدعاء الذاكر الشاكر يتعانق الثناء والطلب . الثناء على الله بما هو له أهل : " فإنك غفور رحيم "، " إنك تعلم ما نخفي وما نعلن "، " الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ... " والطلب من السميع المجيب الوهاب : "رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني ... "، " فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم ... "، " رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء "، " ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين ... " .

وهذا اللون من الدعاء الذي يجمع بين الثناء والطلب، وصفات المدعو، وحال الداعي هو الدعاء الأكمل الأبلغ الأفضل (١٣٣) .

يبدأ " إبراهيم " دعاءه بنداء الرب " رب اجعل هذا البلد آمنا " بحذف حرف النداء وحذف الياء المضاف إليه من ربي . وإيثار لفظ " الرب " في دعاء الطلب في هذا الموقف وفي سواه من مواقف الدعاء على غيره من أسماء الله الحسنى ومنها لفظ الجلالة؛ لأن إجابة الدعاء من مقتضى الربوبية، فالاقرار بتفرد الله بإجابة الدعاء من توحيده في ربوبيته؛ لأن من مقتضى الربوبية أن يربيهم بالنعم، وبما يحتاجون إليه، ومن ذلك إجابة الدعاء وإغاثة المستغيث. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((إن الإله هو المعبود الذي يستحق أن يعبد، والرب هو الذي يَرُب عبده فيدبره . ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه "الله" والسؤال متعلقاً باسمه " الرب " ... ولما كانت العبادة متعلقة باسمه " الله" تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل : كلمات الآذان : الله أكبر الله أكبر، ومثل الشهادتين ... ومثل التشهد ومثل التسبيح والتكبير ... وأما السؤال فكثيرا ما يجيء باسم

الرب كقول آدم وحواء : " ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " ... فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسم "الرب " وإن سأله باسمه " الله " لتضمنه اسم الرب كان حسنا، وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم " الله " أولى بذلك إذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله وإذا قصد الدعاء دعاء باسم "الرب")) (١٣٤) .

وهذا سر كثرة ورود "الرب" في دعوات الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ومنها دعاء " إبراهيم " فقد ورد تسع مرات، وهذا التكرار يوحي بالاهتمام والرغبة في الإجابة وإظهار الاسترحام والاستعطاف والتذلل والالتجاء إلى الله تعالى (١٣٥) .

وانظر إلى كلمة " البلد " جاءت هنا معرفة وفي آية البقرة جاءت نكرة " رب اجعل هذا بلداً آمنا " ولعل السر في التفريق بينهما ــ كما يقول بعض المفسرين ــ . ((إنه تكرر الدعاء من " الخليل " ففي البقرة كان قبل بنائها فطلب من الله أن تجعل بلدا، وأن تكون آمنا، وهنا كان بعد بنائها، فطلب من الله أن تكون آمنا أي بلد أَمن واستقرار)) (١٣٦) .

وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده لأهميته، ((لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان إلى شيء آخر من أمور الدين والدنيا)) (١٣٧) .

وانظر إلى قوله : (("رب إهن أضللن كثيرا من الناس " حيث أسند الإضلال إلى الأصنام مع كوهنا جمادات لا تعقل؛ لأهنا سبب إضلالهم فكأهنا أضلتهم)) (١٣٨) . ففيه مجاز عقلي علاقته السببية .

ويتوالى دعاء إبراهيم ــ عليه السلام ــ " فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم " وتأمل جملة " ومن عصاني فإنك غفوررحيم " ودلالتها على شخصية إبراهيم ــ عليه السلام ــ ففيها تبرز سمة إبراهيم العطوف الرحيم الحليم ((إن إبراهيم لحليم أواه منيب)) (١٣٩) .

ويتصاعد دعاء إبراهيم ــ عليه السلام ــ إلى السماء ((ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس هتوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)) .

ويتكرر النداء في الآية بصيغة الجمع " ربنا " . يقول أبو حيّان : ((لأنه تقدم ذكره وذكر بنيه في قوله : " واجنبني وبنيّ ...)) (١٤٠) .

وانظر التصوير البياني في قوله : ((فاجعل أفئدة من الناس هتوى إليهم ؟ فعبر بالأفئدة عن جميع البدن لأن الفؤاد أشرف عضو مفيد)) (١٤١) . ففي الآية مجاز مرسل علاقته الجزئية .

وتذوق الصورة الاستعارية في " هتوى إليهم " . يقول الشريف الرضي : ((وهذه من محاسن الاستعارات، وحقيقة الهُويّ (النزول) من علو إلى انخفاض كالهبوط، والمراد (تسرع إليهم شوقا، وتطير إليهم حبا)، ولو قال : " تحن إليهم " لم يكن فيه من الفائدة ما في قوله سبحانه " هتوي إليهم " لأن الحنين قد يوصف به

من هو مقيم في مكانه)) (١٤٢) . واقرأ الآية مرة أخرى في سياقها تحس في الأسلوب ((رقةَ ورفرفة تصور القلوب رفافة مجنحة، وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب، إنه تعبير نديّ ينديّ الجدب برقة القلوب)) (١٤٣) .

ويتبع " الخليل " ــ عليه السلام ــ طلبه الآنف بالثناء على الله تعالى وحمده وإثبات علمه المطلق بالظاهر والمضمر وجوده وكرمه ((ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء)) .

ومما يلفت النظر هنا تقديم الأرض على السماء خلافا لما هو غالب في القرآن من تقديم السماء على الأرض، ولعل ذلك لغرض اقتضاه التناسق الصوتي بين لفظة السماء وموقف الدعاء؛ فلهذا قدمت الأرض وأخرت السماء وجعلت فاصلة ختمت بها الآية لما في السماء من مد يتناسب وموقف الدعاء الخاشع المطمئن، ولو قدمت السماء وأخرت الأرض وجعلت فاصلة لما تم ذلك التناسق الصوتي العذب .

ومن مظاهر العدول الالتفات من الخطاب في مطلع الآية " ربنا إنك تعلم ما نخفى ..." إلى الغيبة في قوله : " وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء " وذلك : ((لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم على نهج قوله تعالى : " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " والإيذان بعمومه؛ لأنه ليس بشأن يختص به أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الأشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدأ الكل، وقيل هو من كلام الله ــ عز وجل ــ وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام ...)) (١٤٤) .

وتقييد النعمة بحال الكبر في الآية الثانية " الحمد لله الذي وهب لي على الكبر .... " يدل على استعظامها وإظهار شكرها؛ ((لأن مجئ الشيء بعد اليأس أحلى في النفس وأبهج)) (١٤٥) .

وقوله : " إن ربي لسميع الدعاء " كناية عن الإجابة والقبول ((وكان قد دعا الله أن يهبه ولدا بقوله : " رب هب لي من الصالحين " فحمد الله على ما وهبه من الولد وأكرمه به من إجابة دعائه)) (١٤٦)

ويختم هذا الدعاء الخاشع بالاستغفار " ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب " .

وتذوق بلاغة التصوير الاستعاري ودلالاته في قوله : "يوم يقوم الحساب " فالحساب هنا كائن حي يقوم . بمعنى يقع الثواب والعقاب، ويتحقق حساب المكلفين ((من قولهم : قام النهار إذا انتهت غايته وتكاملت زيادته، ومن قولهم : قامت السوق إذا اجتمع أهلها واستمر بيعها ....)) (١٤٧). استعير لفظ يقوم للدلالة على أن الحساب في غاية الاستقامة والعدل .

(ب) دعاء زكريا عليه السلام في سورة مريم

قال الله تعالى : ﴿ كهيعص . ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي

عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا . يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً . قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ (١٤٨) .

كان زكريا ــ عليه السلام ــ شيخا طاعنا في السن، وكانت امرأته عاقرا، وكان يخشى على بني إسرائيل أن يبتلوا بمواليه لما يعلم من حالهم وعدم استمساكهم بالشريعة (١٤٩) . فدفعه ذلك، وما رآه من إكرام الله تعالى لمريم ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ــ دفعه ذلك إلى أن يقف متضرعا بين يدي ربه؛ ليرزقه الذرية، ويهب له وليا صالحا ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الْدُّعَاءِ ﴾ (١٥٠) . رفع زكريا دعاءه في ضراعة وخفية شاكيا إلى ربه حاله وضعفه وشيخوخته، " معترفاً بأن الله قد عوده أن يستجيب إليه إذا دعاه " إنك سميع الدعاء "، فلم يشق مع دعائه ربه وهو في قوته فما أحوجه الآن وهو في ضعفه وكبره أن يستجيب الله له، ويتم عليه نعمته

وبعد أن ذكر بواعث الدعاء عرض مطلبه وأمله " فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا " .

وقد جاء هذا الدعاء في أسلوب بليغ معجز . ومن مظاهر بلاغته إيجاز الحذف في قوله " ذكر رحمة ... " أي المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك ... " وقيل ذكر مبتدأ حذف خبره أي فيما يتلى ذكر (١٥١) .ومنها التعريف بالإضافة في " ربك، عبده، ربه " لتكريم وتشريف المضاف إليه في هذه الألفاظ وهو محمد ــ ﷺ ــ في " ربك " وزكريا ــ عليه السلام ــ في " عبده " و " ربه "، وهذه الإضافة توحي بجو من الرعاية والعناية التامة بهذين النبيين الكريمين . وفي وصف النداء بالخفيّ احتراس (١٥٢) مما يوهم الرياء أمام الناس ((لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص)) (١٥٣) . وخفض الصوت من آداب الدعاء ومن أسراره وحكمه ((أنه أعظم في الأدب وأبلغ في التضرع والخشوع والإخلاص، وأدل على قرب صاحبه إلى من يدعوه وهو الله القريب المجيب)) (١٥٤) . وفصلت جملة " قال رب إني وهن ... " عما قبلها للاستئناف البياني، لوقوعها جوابا عن سؤال يفهم من الجملة الأولى فكأنه قيل : ما ذلك النداء ؟ فقيل : " قال رب ..... "، وفي حذف حرف النداء وياء المتكلم إيجاز يوحي بشعور الداعي بقربه من ربه .

وتأمل جمال النظم وروعة التصوير في قوله : " إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ... "، فوهن العظم واشتعال الرأس كنايتان عن الضعف والشيخوخة، والأصل يا ربي قد شخت، ووازن بين التعبيرين لتجد الفرق بينهما شاسعا . وتأكيد الجملة لإظهار الضعف والخشوع .

واستعارة الاشتعال لانتشار بياض شعر الرأس في سواده في قوله "واشتعل الرأس شيبا " من أبدع الاستعارات وأحسنها " شبه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب بجامع البياض والإنارة، وقيل الانبساط والانتشار، واستعير الاشتعال للإنتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية (١٥٥) .

ويرى عبدالقاهر أن مرجع المزية والروعة أو الجمال في قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ ليست لمجرد الاستعارة بل ترجع أيضاً إلى النظم، ممثلاً في إسناد الفعل " اشتعل " إلى " الرأس " فأفاد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى، الشمول وأنه قد استغرق وعم جملته ... وهذا ما لا يكون إذا قيل : ((واشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس)) (١٥٦) .

وإذا كان الأصل " اشتعل شيب رأسي " فما فضل الجملة القرآنية " واشتعل الرأس شيبا " يقول السكاكي : ((إنها أبلغ من جهات : إحداها إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادة شمول الاشتعال الرأس، إذ وزان ــ اشتعل شيب رأسي، واشتعل رأسي شيبا ــ وزان اشتعل النار في بيتي واشتعل بيتي نارا ــ والفرق نيِّر، وثانيتها الإجمال والتفصيل في طريق التمييز، وثالثهما تنكير " شيبا " لإفادة المبالغة، ثم ترك ــ اشتعل رأسي شيبا ــ لتوخي مزيد التقرير إلى ــ اشتعل الرأس مني شيبا ــ على نحو: "وهن العظم مني " ثم ترك لفظ مني لقرينة عطف" اشتعل الرأس " على "وهن العظم مني " لمزية مزيد التقرير، وهو (إيهام) حَوالة تأدية مفهومه على العقل دون اللفظ ...)) (١٥٧) . وتكرار النداء في قوله " ولم أكن بدعائك رب شقيا " للمبالغة في التضرع والابتهال والاسترحام . يقول أبو السعود " ((والتعرض في الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن إضافة ما فيه صلاح المربوب، مع الإضافة إلى ضميره ــ عليه الصلاة والسلام ــ لا سيما توسيطه بين كان وخبرها؛ لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع ...)) (١٥٨) .

وتأمل بلاغة الحذف في قوله : ((وإني خفت الموالي ... " أي خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي . وقيل بمعنى الولاية في الموالي أي خفت الذين يلون الأمر من ورائي أي بعد موتي (١٥٩) . وفي قوله : " من لدنك .. ((تأكيد لكونه وليا مرضيا بكونه مضافا إلى الله تعالى وصادرا من عنده ...)) (١٦٠) . وتأخير " وليا " عن الجارين ((لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له، فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن، ولأن فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرهما عن الكل أو توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم)) (١٦١) . وآثر التعبير بالوليّ عن الولد ((لبعد ذلك عنده لكبره وكون امرأته عاقراً)) (١٦٢) .وقرأ الجمهور " يرثني ويرث من آل يعقوب " وعلى قراءة " يرثني وآرث من آل يعقوب" يكون في الآية أسلوب تجريد (١٦٣) للمبالغة، في الوصف، والتقدير" يرثني منه وآرث " وقيل تقديره " يرثني به وآرث (١٦٤) .

وعلى التقدير الأول يكون التجريد بدخول من التجريدية على المنتزع منه، ولا على الثاني يكون بدخول الباء التجريدية على المنتزع منه . وجملة النداء الاعتراضية ((واجعله رب رضيا " لتأكيد الاسترحام وللمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه)) (١٦٥) " هذا وتأتي استجابة الرب لطلب زكريا في رعاية ورضى ((فالرب ينادي عبده من الملأ الأعلى : " يا زكريا " ويعجل له البشرى : " إنا نبشرك بغلام " ويغمره بالرحمة فيختار له اسم الغلام الذي بشره به "اسمه يحي" وهو اسم غير مسبوق : " لم نجعل له من قبل سميّا "، إنه فيض الكرم الإلهي يغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة، وناجاه في خفية، وكشف له عما يخشى وتوجه إليه فيما يرجو)) (١٦٦) .

وفي قوله : " يا زكريا إنا نبشرك بغلام .. " إيجاز بالحذف ((أي فاستجاب له دعاءه فقال (تعالى) يا زكريا)) (١٦٧)، وفي ندائه ــ تعالى ــ لزكريا ((مع وصول خطابه تعالى إليه بتوسط الملك مبالغة في التضرع والمناجاة والجد في التبتل إليه تعالى، واحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم أن علمه تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه، كما أن علم البشر بما يصدر عنه ــ سبحانه ــ متوقف على ذلك في عامة الأوقات)) (١٦٨) .

((وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء على هذه الاستجابة القريبة للدعاء فإذا هو يواجه الواقع ... ويواجه معه وعد الله . وإنه ليثق بالوعد، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه ــ وهي حالة نفسية طبيعية في مثل موقف زكريا النبي الصالح الإنسان...))(١٦٩) .

وقال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا "، والفصل هنا للاستئناف البياني، فكأنه قيل : فماذا قال " زكريا " حين استجاب الله دعاءه ؟ " قال رب أنى .. " والاستفهام للتعجب من قدرة الله وبديع صنعه، حيث يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير (١٧٠) . والجملتان في قوله : " وكانت امرأتي عاقرا، وقد بلغت من الكبر عتيا" حاليتان لتأكيد التعجب (١٧١) . ثم أجاب الله ــ سبحانه ــ على هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله : " قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّن وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا " .

ومن بلاغة هذه الآية إيجاز الحذف في قوله : " قال كذلك " فكذلك خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك، والإشارة إلى ما تقدم من وقوع وعده تعالى (١٧٢) . ويجوز أن تكون الكاف منصوبة بقال في " قال ربك " أي قال قولاً مثل ذلك ((وذلك إشارة إلى مبهم يفسره هو على هين)) (١٧٣) وعليه ففي الآية إيضاح أَو تفسير بعد إبهام . وفي قوله : " قال كذلك قال ربك هو على هين " التفاتتان " فقد ((أخرج القول الثاني مخرج الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وإدخال الروعة . كقول الخلفاء : أمير المؤمنين يرسم لك مكان أنا أرسم .. ثم التفت من ضمير الغائب العائد إلى الرب إلى ياء العظمة إيذاناً بأن مدار كونه هينا عليه ــ سبحانه ــ هو القدرة الذاتية لا ربوبيته ــ تعالى ــ له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدا لما يعقبه ...)) (١٧٤) .

وإضافة " الرب " إلى ضميره ــ عليه السلام ــ في قوله " ربك " تفيد ((تشريفا له وإشعارا بعلة الحكم، فإن تذكير جريان أحكام ربوبيته تعالى (على عبده زكريا) من إيجاده من العدم وتصريفه في أطوار الخلق ... إلى أن يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أساس استبعاده ــ عليه الصلاة والسلام ــ لحصول الموعود ويورثه ــ عليه السلام ــ الاطمئنان بإنجازه لا محالة)) (١٧٥) .

وقال " خلقتك " فنسب الخلق إليه ولم ينسبه إلى آدم ــ عليه السلام ــ لكونه المخلوق من العدم حقيقة ((لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس حيث نبه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه (آدم) من العدم)) (١٧٦) .

ولهفة زكريا ــ عليه السلام ــ على الطمأنينة وزيادة اليقين بما بشر به تدفعه إلى ((أن يطلب آية وعلامة على تحقق البشرى، فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء والاستجابة ... ويؤدّي بها حق الشكر لله الذي وهبه على الكبر غلاما ... وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبح ربه ويحتبس إذا كلم الناس وهو سويّ معافى في جوارحه، ولم يصب لسانه عوج ولا آفة)) (١٧٧)

" قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا " .

ومن بلاغة هاتين الآيتين إيجاز الحذف فقد حذف حرف النداء وياء المتكلم في " رب "، وإذا كان " سبحوا " بمعنى صلوا كما يرى الجمهور فهو من تسمية الشيء باسم جزئه (١٧٨)، وقيل المراد بالتسبيح التنزيه وهو قولهم سبحان الله . ويعلل ابن أبي الإصبع هذا الاختيار القرآني فيقول : ((وإنما خص التسبيح بالذكر لأن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجب منه أو رأى فيه بديع صنعه أو عجيب حكمه، يقول : سبحان الله ! سبحان الخالق . فلما رأى حصول الولد من شيخ وعاقر عجب من ذلك فسبح وأمر بالتسبيح)) (١٧٩) .

هذا وإن البيان ليعجز عن وصف عذوبة الإيقاع وحلاوته في فواصل هذا الدعاء الصادق المؤثر : زكريّا، خفيّا، شقيّا، وليّا، رضيّا، سميّا، عتيّا، سويّا، عشيّا " وتناسقه مع جو العبادة وموقف الدعاء .

(جـ) دعاء موسى عليه السلام في سورة طه

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُواْ قَوْلِي . وَاجْعَل لِّي وَزِيْراً مِّنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْراً . وَنَذْكُرَكَ كَثِيْراً . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ (١٨٠) .

ورد دعاء موسى ــ عليه السلام ــ في سياق قصته في الذكر الحكيم، وذكر في سور متعددة (١٨١) منها سورة طه .

ويأتي هذا الدعاء ضمن آيات هذه السورة التي تستهدف ((حث النبي ــ ﷺ ــ على الصبر على ما يلقاه من إعراض قومه عن دعوته)) (١٨٢)، ويمثل حلقة في قصة موسى ــ عليه السلام ــ مع فرعون الطاغية الجبار التي تتجلى في مشاهد حلقاتها رعايته ــ سبحانه ــ لرسوله وتثبيته وتأييده؛ ليتأسى خاتم الأنبياء والمرسلين بما كان من ثبات موسى في وجه فرعون ومن صبره على عناد قومه من بني إسرائيل (١٨٣) . فبعد أن اختاره الله للرسالة ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ (١٨٤)، ولخص له أسس الرسالة وقواعدها، ممثلة في الاعتقاد بالوحدانية والعبادة والإيمان بالساعة ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ... ﴾ (١٨٥)، وأراه بعض معجزاته ــ بعد ذلك أرسله إلى فرعون الذي طغى وتجاوز الحد في الطغيان حتى ادعى الألوهية، ورأى ــ عليه السلام ــ لكي يواجه ذلك الطغيان أن يتسلح بأسباب تكفل له النصر فتوجه إلى ربه بذلك الدعاء البليغ .

استهل موسى ــ عليه السلام ــ دعاءه بنداء الرب " قال رب اشرح لي صدري " بحذف حرف النداء الدال على شعوره بقربه من ربه، وحذف ياء المتكلم المضاف إليه من " رب " للتخفيف، واختيار لفظ " الرب " هنا لأن إجابة الدعاء من مقتضى الربوبية كما أشرت في الأدعية السابقة . وتأتي جملة " اشرح ... " جواباً للنداء، ويأتي الطلب بصيغة الأمر الدعائي، وخرج إلى معنى الدعاء؛ لأنه موجه من العبد إلى المعبود سبحانه وتعالى . ومعنى " اشرح صدري " وسّعه ونوّره بالإيمان والنبوة ((قال ابن جريج معناه وسع لي صدري لأعي عنك ما تودعه من وحيك، وقال الكرماني : وسع قلبي ولينه لفهم خطابك وأداء رسالتك والقيام بما كلفتنيه من أعبائها)) (١٨٦) . والمعنى الحسّي للشرح بسط اللحم وتقطيعه . يقال " شرحت اللحم وشرّحته " (١٨٧)، وعليه فهو في الآية مستعار ((لإزالة ما في الإنسان من خواطر تكدره، أو توجب تردده في الإقدام على عمل ما تشبيها بتشريح اللحم بجامع التوسعة)) (١٨٨) .

وفصلت جملة " قال ... " التي تحكي جواب موسى ــ عليه السلام ــ قبلها للاستئناف البياني لوقوعها جواباً عن سؤال يفهم من الجملة السابقة : " اذهب إلى فرعون ... " كأنه قيل : فماذا قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ حين أمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير ؟ فقيل : قال ــ مستعيناً بربه ــ عز وجل : " رب اشرح لي صدري ... " (١٨٩) .

وبعد أن طلب موسى من ربه في الجملة السابقة أن يشرح صدره حتى لا يضيق بما يلاقيه في تلك الدعوة ــ بعد ذلك تأتي الجملة المعطوفة : " ويسّر لي أمري " متضمنة طلباً آخر وهو أن يسهّل ربه عليه القيام بما كلفه به من أعباء الرسالة، والطلب هنا كسابقه خرج إلى معنى الدعاء، ووصلت هذه الجملة بما قبلها لاتحادهما إنشاء .

وتأمل هاتين الجملتين الطلبيتين تلحظ زيادة كلمة " لي " بعد الفعلين " اشرح " و " يسر " وهو تفصيل

بعد إجمال، فقوله : " اشرح لي " يفيد طلب شرح لشيءٍ ماله؛ لأنه في تقدير : " اشرح شيئا لي "، وقوله : " صدري " يفيد تفسيره وبيانه، وكذلك قوله : " ويسر لي أمري " ولو لم يطنب لقال : اشرح صدري، ويسّر أمري "، ففي الآيتين تكرير للمعنى الواحد من جهتي الإجمال والتفصيل، وهو من صور الإطناب عند البلاغيين، وفائدته تأكيد طلب الشرح لصدره والتيسير لأمره، والمقام مقتض للتأكيد، للإرسال في قوله :{ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ } المؤذن بتلقي المكاره والشدائد (١٩٠) . وفي تقديم " لي " على صدري وأمري وتكرارها ((إظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين، وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما به)) (١٩١) .

وبعد ذلك الدعاء الشامل بشرح الصدر وتيسير الأمر أخذ ــ عليه السلام ــ يحدد ويفصل بعض ما يعينه على أمره فقال : ((واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ...)) .

والعقدة أصلها موضع العقد والربط من الحبل ونحوه (١٩٢)، أطلقت على عسر النطق بالكلام أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة؛ لعدم تصرف اللسان عند النطق بالكلمة، وهي استعارة تصريحية . ويقال للعقدة حُبْسة . يقال عَقِد اللسان كفرح، فهو أعقد إذا كان لا يبين الكلام، واستعار لإزالتها فعل " الحل " المناسب العقدة على طريقة الاستعارة المكنية (١٩٣) . وتنكير " عقدة " للتعظيم أي
عقدة شديدة، وعدل عن التعريف بالإضافة أي عن أن يقول عقدة لساني ليتأتى التنكير المشعر بأنها عقدة شديدة (١٩٤) .

وقارن ــ أيها المتذوق لبلاغة القرآن ــ هذه الجملة الطلبية " واحلل عقدة من لساني " بالجملتين السابقتين تلحظ أن " لي " لم تأت فيها؛ لأنها تضمنت طلبا ((يرجع إلى تبليغ رسالة الله إلى فرعون فليست فائدتها راجعة إليه حتى يأتي لها بلام التبيين التي تفيد تقوية البيان)) (١٩٥) . ووصلت جملة " واحلل ... " بما قبلها لاتفاقهما إنشاء .

ويأتي قوله : "ويفقهوا قولي" جوابا للطلب وغرضا من الدعاء، وفيها إيجاز بالحذف لوقوعهما جواب شرط مقدر أي إن تحلل عقدة لساني يفقهوا قولي (١٩٦) .

ويتصاعد دعاء موسى ــ عليه السلام ــ المحدد المفصل فيسأل ربه أن يعينه بمعين من أهله يؤازره في تحمل أعباء الرسالة، ويكون شريكا له في أمر النبوة ((واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري وأَشركه في أمري...)) .

ومن بلاغة هذه الآيات وصل جملة " اجعل " بجملة " اشرح " لاتحادهما إنشاء، وعلى رأي من أعرب " وزيراً " مفعولاً ثانيا لفعل " جعل " يكون تقديمه على المفعول الأول " هارون " للاهتمام والاعتناء بشأن الوزارة (١٩٧) .

وقرأ الجمهور " اشدد به أزري . وأَشركه في أمري ... " بصيغة الطلب الدعائي في فعلي " اشدد "

بوصل الهمزة و " أَشرك " بقطع الهمزة وفتحها، وعلى ذلك يكون المعنى : يا رب احكم به قوتي، واجعله شريكي في أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي (١٩٨) . وفصلت جملة "اشدد به " عن جملة " اجعل لي وزيرا..((لكمال الاتصال بينهما؛ فإن شد الأزر عبارة عن جعله وزيرا، وأما الإشراك في الأمر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف))(١٩٩) .

وعلى قراءة " أَشدد به أزري وأُشركه في أمري " بصيغة الخبر بفتح الهمزة المقطوعة في " أَشدد " وبضم همزة " أُشركه " يكون المعنى أَشدد أنابه أزري، وأُشركه أنا في أمري، ويكون الفعلان مجزومين، ففيهما إيجاز بالحذف لوقوعهما في جواب شرط مقدر والتقدير " فإن فعلت ذلك أَشدد به أزري " (٢٠٠) .

ويُعلل موسى ــ عليه السلام ــ طلبه لنفسه ولأخيه بأن يتخذ من ذلك عونا لهما على كثرة التسبيح والدعاء والتلقي من السميع البصير ((كي نسبحك كثيرا، ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا))، وتأمل نظم الآيات تجد التسبيح تقدم على الذكر وسر هذا التقديم لأن التسبيح ــ كما يقول أبو حيان ــ ((تنزيهه تعالى في ذاته وصفاته وبراءته عن النقائص ومحل ذلك القلب . والذكر الثناء على الله بصفات الكمال ومحله اللسان؛ فلذلك قدم ما محله القلب على ما محله اللسان)) (٢٠١) .

وتأتي ثمرة ذلك الدعاء ونتيجته " قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى " وتأمل هذه الآية التي تتضمن خبر الاستجابة تجدها جاءت مصدرة بقد التحقيقية الداخلة على الفعل الماضي التي تفيد التوكيد، وحذف منها المسند إليه في " قال وأوتيت " للإيجاز وللعلم به فيهما . وتأمل جملة النداء الاعتراضية " يا موسى " وما توحي به من تشريف له ــ عليه السلام ــ بالخطاب إثر تشريفه بقبول الدعاء، وما تتضمنه من تكريم وإيناس بنداء الكبير المتعالي عبداً من عباده باسمه " يا موسى " (٢٠٢) . هذا إلى ما تسهم به الفاصلة في هذه الآية " موسى " بألفها المقصورة من تناسق صوتي ينسجم وفواصل الآيات الأخر في هذه السورة " هُدى، طُوى، يُوحى، أُولى، أُخرى، كُبرى، مُوسى ... "، وما فيها من عذوبة الجرس الشجي الندي الرخي الذي ينتهي في فاصلة كل آية، ويتناسق مع جو الدعاء وظلال الرحمة والقرب والرعاية التي تظلل حلقات القصة في هذه السورة الكريمة .

(د) دعاء نوح عليه السلام في سورة نوح

قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيْراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِيْنَ إِلاَّ ضَلاَلاً . مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا . وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِيْنَ دَيَّاراً . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا . رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِيْنَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ (٢٠٣) .

ولئن كان في مشاهد الأدعية السابقة نداوة ورقة ورحمة، ففي بعض مواقف دعاء الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم قوة وشدة يقتضيها المقام، ويستدعيها الصراع الأزليّ بين النور والظلمات وبين الهدى والضلال .

هذا شيخ الأنبياء " نوح " ــ عليه السلام ــ يدعو قومه ليلاً ونهاراً، ويمكث في دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ويسلك في سبيل هدايتهم شتى الأساليب ومختلف الوسائل، وهم يتمادون في عتوهم، ولا يزدادون إلا ضلالا واستكبارا . استمع إلى معاناته ــ عليه السلام ــ يصورها القرآن أبلغ وأجمل تصوير : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً . فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ... ﴾ إلى أن يقول : ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً . وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ... ﴾ (٢٠٤) الآيات .

استمع إلى هذا الدعاء المنبعث من قلب متعب، جاهد طويلاً، وعانى كثيراً، وأَعِرْ سمعَك هذه الشكوى المرة الحزينة التي تفيض بها ألفاظ وجمل وعبارات هذه الآيات .

يقول المفسرون : ((ولما يئس من إيمانهم بإخبار الله له بقوله : " إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن " دعا عليهم فاستجاب الله دعاءه وأغرقهم)) (٢٠٥) .

وقد جاء هذا الدعاء في أسلوب بليغ معجز، ومن مظاهر بلاغته العدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله " ولا تزد الظالمين إلا ضلالا " بعطفه على قوله تعالى : " رب إنهم عصوني " على حكاية كلام نوح بعد " قال " وبعد الواو النائبة عنه أي قال رب إنهم عصوني، وقال لا تزد الظالمين إلا ضلالا " ونكتة العدول إلى الإظهار ((للتسجيل عليهم بالظلم المفرط وتعليل الدعاء عليهم به ...)) (٢٠٦) .

وقوله : " مما خطيئاتهم أغرقوا فأُدخلوا نارا ... أنصارا " اعتراض وسط بين الدعاء للدلالة من أول الأمر ((بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيئاتهم التي عددها نوح عليه السلام ...)) (٢٠٧) .

ومن بلاغة هذه الآية تقديم الجار والمجرور " مما خطيئاتهم " على العامل " أغرقوا " لإفادة القصر، أي إن إغراقهم وإدخالهم النار إنما كان بسبب خطاياهم وهي الكفر وسائر المعاصي (٢٠٨) .

وقيل المراد بالنار في الآية " عذاب القبر " بدليل العطف بالفاء التي تفيد الترتيب مع التعقيب لأن ((نار الآخرة لم يذوقوها بعد فدل على أن المراد عذاب القبر)) (٢٠٩) . وقيل هي نار الآخرة ((والتعقيب بالفاء مقصود هنا؛ لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم، والفاصل الزمني القصير كأنه غير موجود؛ لأنه في موازين الله لا يحسب شيئا)) (٢١٠)، وعلى هذا يكون في قوله : " فأدخلوا " تعبير عن المستقبل بصيغة الماضي للإشارة إلى تحقق وقوعه .

وتأمل تنكير النار في قوله : " فأدخلوا نارا " وما يوحي به من التعظيم والتهويل لهذه النار، وهو يلائم ويناسب عتوّ هؤلاء القوم وكفرهم . والمح ما في قوله : " فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا " من تعريض وتهكم ((باتخاذهم آلهة من دون الله وبأنها غير قادرة على نصرهم)) (٢١١) .

وانظر إلى حذف المسند إليه وبناء الفعل للمفعول في قوله : ((أُغرقوا فأدخلوا ...)) وغرضه البلاغي توجيه المخاطب لهذا الحدث العظيم دون أن يشغل بغيره، ولهذا جاء على هذه الصورة من الحذف في آية هود : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ ﴾ (٢١٢) .

وانظر إلى العدول أو المجاز المرسل في قوله : " ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا " أي إلا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما هو منتظر منهم مستقبلا باعتبار ما سيكون كما يقول البلاغيون .

ولما دعا على الكافرين بالهلاك أتبعه بالدعاء لنفسه ووالديه والمؤمنين والمؤمنات، باسطا القول بسطا يتناسب وطلب الغفران، حيث عم بالدعاء " المؤمنين والمؤمنات " بعدما خص به من يتصل به نسبا ودينا في قوله : " لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا " وذلك لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص لذكره مرتين : مرة منفردا ومرة مندرجاً تحت العام، وهذا من عطف العام على الخاص، وهو من صور الإطناب عند البلاغيين، ومنه قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ } (٢١٣) . فعطف القرآن على ما قبله؛ لأن الفاتحة بعض من القرآن، وهذا على الأرجح في المراد بالسبع المثاني (٢١٤) .

هذا ولا يفوت المتذوق لبلاغة هذا النص الكريم أن يشير إلى قوة الجرس الصوتي وامتداده وتناسقه مع جو هذا الدعاء الثائر للحق على الباطل مجسَّداً في أولئك الظالمين الضالين المضلين . فالفواصل التي تنتهي بها جل الآيات السابقة ــ بمقاطعها التي تتألف من صوت متحرك هو الراء، ومن صوتين ممدودين هما الألف التي قبل الراء والألف التي بعدها ــ تسهم بجرسها في الإيحاء بتلك المعاناة، وذلك الجهد الثقيل والصبر الجميل والزمن الطويل الذي قضاه نوح ــ عليه السلام ــ في دعوة قومه إلى النور والهدى فلم يزدادوا إلا إعراضا وضلالا واستكبارا، ولما يئس من إيمانهم دعا عليهم، فعاقبهم الله بظلمهم وخطاياهم ((فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ)) (٢١٥) .

((رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَآ، إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًاً، كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمَّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلاَنَا، فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ)) .

* * *

الخاتمة:

وبعد، فذلك حديث مقتضب عن بعض مظاهر الإعجاز البلاغي في بعض آيات الدعاء ومواقفه في القرآن الكريم، ومنه يمكن أن أسجل النتائج الآتية :

١) وردت مادة " د ع و " في القرآن الكريم بمعان متعددة أبرزها العبادة والطلب أو السؤال والاستغاثة والاستعانة والقول والنداء والحثّ على الشيء والحضّ عليه .

٢) منهج القرآن في عرض آيات الدعاء بنوعيه : دعاء العبادة والثناء ودعاء الطلب والمسألة يتلخص في مجيء الثناء تارة بين يدي الطلب وتارة في ثناياه وتارة ينفصل أحدهما عن الآخر .

٣) تضمنت آيات الدعاء في القرآن الكريم معاني سامية ومطالب عالية تجمع بين خيري الدنيا والآخرة .

٤) جاءت آيات الدعاء في أسلوب بلاغي معجز، يتسم بالوضوح والقوة والجمال، وهي تمثل السمات العامة لأسلوب القرآن الكريم .

٥) ومن أبرز المظاهر البلاغية التي تحقق تلك السمات في أسلوب الدعاء ما يأتي :

(أ) الدقة في اختيار الألفاظ وهي من مظاهر الوضوح .

(ب)أساليب العدول أو الخروج عن الأصل كالتقديم والتأخير والإيجاز والحذف والالتفات والتصوير وهي من مظاهر القوة والجمال .

٦) من الملاحظ البلاغية العامة في آيات الدعاء إيثار " لفظ الجلالة " في دعاء العبادة والثناء، وإيثار لفظ " الرب " في دعاء الطلب والمسألة؛ لأن العبادة متعلقة بالألوهية، وإجابة الدعاء من مقتضى الربوبية .

هذا والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحواشي والتعليقات

(١) سورة هود : ١ .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، ٩٤/١١، دار المعرفة، بيروت

(٣) سورة غافر : ٦٠ .

(٤) انظر : الفتاوى : شيخ الإسلام ابن تيمية، ٤٧٨/١٦، ط / الرياض .

(٥) إعجاز القرآن : أبو بكر الباقلاني، تح : السيد أحمد صقر، ٣٥، دار المعارف، مصر، ط/١ .

(٦) لم أعثر أَوَان كتابة هذا البحث على دراسة بلاغية مخصصة لآيات الدعاء في القرآن الكريم، وبعد طباعته أشار تقرير الفاحصين الفاضلين عنه إلى ثلاثة أبحاث تناولت بلاغة الدعاء في القرآن الكريم : أولها ((وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة السلام)) وقد نشر بمجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد العاشر سنة ١٤١٤هـ، والثاني ((وجوه البيان في دعاء الأشد في القرآن))، وقد نشر بمجلة جامعة أم القرى، السنة التاسعة، العدد الحادي عشر سنة ١٤١٦هـ وهما للدكتورة سميرة عدلي رزق، والثالث رسالة علمية نوقشت في جامعة أم القرى في كلية اللغة العربية للباحثة " بهية بنت حامد اللحياني " تناولت الدعاء في القرآن الكريم أساليبه ومقاصده وأسراره البلاغية . وفي أثناء إجراء بعض التعديلات التي تضمنها التقرير المذكور تيسر لي الاطّلاع على البحث الأول من هذه الأبحاث المذكورة . وهو بحث جيد يتسم بالدقة، بيد أنه مقصور على دعاء " إبراهيم " ـ عليه السلام ـ في سورتي البقرة وإبراهيم .

(٧) أَطْلقت الدكتورة سميرة رزق ـ في بحثها الذي أشرت إليه ـ على القسم الأول الدعاء العام، وسمّت الثاني الدعاء الخاص، والثاني عندي أخص من الخاص؛ لأنه مقصور على دعاء الأنبياء والمرسلين، أما الخاص عند الباحثة الفاضلة فيشمل أيضاً دعاء بعض الصالحين من غير الأنبياء والمرسلين، وهذا هو الفرق بين التقسيمين . انظر : مجلة جامعة الإمام، ع (١٠)، (١٤١٤هـ)، ص٢٠٣ .

(٨) جمهرة اللغة : ابن دريد، ٢٨٣/٢، دار صادر، بيروت .

(٩) لسان العرب : ابن منظور، تح : عبدالله علي الكبير وزملائه، مادة (د ع ا)، دار المعارف، مصر .

(١٠) المخصص : ابن سيدة، ٨٨/١٣، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٦هـ .

(١١) المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني، ١٧٦، دار المعرفة، بيروت، ط/١، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م .

(١٢) سورة الأعراف : ٥٥ .

(١٣) معاني القرآن وإعرابه : أبو إسحاق الزجاج، تح : د. عبدالجليل شلبي، ٣٤٤/٢، عالم الكتب، بيروت، ط/١، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

(١٤) سورة الأعراف : ١٩٤ .

(١٥) تهذيب اللغة : أبو منصور الأزهري، تح : د. عبدالحليم النجار، ١١٩/٣، الدار المصرية للتأليف والنشر، بدون تاريخ .

(١٦) سورة البقرة : ٦١ .

(١٧) سورة البقرة : ٢٣ .

(١٨) معاني القرآن : الفراء، تح : أحمد نجاتي ومحمد علي النجار، ١٩/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/٢، ١٩٨٠م .

(١٩) غريب القرآن : ابن قتيبة، تح : أحمد صقر، ٤٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ .

(٢٠) سورة يونس : ١٠ .

(٢١) مجاز القرآن : أبو عبيدة معمر بن المثنى، تح : فؤاد سزكين، ٢٧٥/١، مكتبة الخانجي، القاهرة .

(٢٢) سورة الكهف : ٥٢ .

(٢٣) سورة الإسراء : ٥٢ .

(٢٤) فتح القدير : محمد بن علي الشوكاني، ٢٣٤/٣، دار المعرفة، بيروت .

(٢٥) سورة يونس : ٢٥ .

(٢٦) سورة يوسف : ٣٣ .

(٢٧) المفردات في غريب القرآن : ١٧٦ .

(٢٨) شأن الدعاء : أبو سليمان الخطابي، تح : أحمد يوسف الدقاق، ٣، دار الثقافة العربية، دمشق، ط/٣، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م .

(٢٩) انظر : الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية : أبو عبدالرحمن جيلان العروي، ٤٨/١مكتبة الرشد، الرياض، ط/١، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م .

(٣٠) انظر : الفتاوى : ٢٣٧/١٠، ٢٣٨، وانظر : بدائع الفوائد : ابن القيم، ١٩٠/٢، ٢/٣، دار الكتاب العربي، بيروت .

(٣١) المصدر نفسه : ١٠/١٥ .

(٣٢) انظر : الدعاء ومنزلته من العقيدة : ١١٤/١ .

(٣٣) المرجع السابق : ١١٦/١ وانظر : الفتاوى : ١٠/١٥، ١١، وجلاء الأفهام : ابن قيم الجوزية، ٨١، دار الكتب العلمية، بيروت وبدائع الفوائد : ٣/٣ .

(٣٤) انظر : الفتاوى : ٢٤٤/١٠ وجلاء الأفهام : ٧٩ وتفسير ابن كثير : ٢١/١، ٢٧، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م، والدعاء ومنزلته في العقيدة : ١٤٦/١ وما بعدها .

(٣٥) سورة القصص : ٢٤ .

(٣٦) سورة الأنبياء : ٨٧ .

(٣٧) انظر : الدعاء ١٥١/١ وما بعدها .

(٣٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين البقاعي، ١٧/١،دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م .

(٣٩) سورة البقرة : ٢٨٥، ٢٨٦ .

(٤٠) انظر : صحيح مسلم، تح : محمد فؤاد عبدالباقي، جـ١٥٤/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت. والمسند: أحمد بن حنبل، ٣٧١/٤، المكتب الإسلامي . وتفسير الرازي، ١٧٧/١، دار الفكر، بيروت، ط/٥، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م . وروح المعاني : أبو الفضل الألوسي، ٤٨/١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م . والحديث رواه مسلم في صحيحه ٢٩٦/١ ـ وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل . فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى : حمدني عبدي، وإذا قال : الرحمن الرحيم، قال الله تعالى : أثنى عليّ عبدي . وإذا قال : مالك يوم الدين، قال : مجدني عبدي . فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)) .

(٤١) فتح الباري : ١٥٦/٨ .

(٤٢) نظم الدرر : ١٢/١ .

(٤٣) الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني، شرح : د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ٨٠/١، دار الكتاب اللبناني، ط/٥،

١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م .

(٤٤) ويسمى " حسن الابتداء " وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ويسمى " براعة الاستهلال "، وهو أن يكون مطلع الكلام دالاً على غرض المتكلم من غير تصريح بل بإشارة لطيفة . انظر : الإيضاح : ٥٩١/١، وبغية الإيضاح : عبدالمتعال الصعيدي، ١٥٨/١، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة، ط/٦، والبديع : ابن المعتز، تح : كرتشقوفسكي، ٩٣، لندن، ١٩٣٥م . وخزانة الأدب وغاية الأرب : ابن حجة الحموي، ١٠، طبعة بولاق، ١٢٩١هـ .

(٤٥) انظر : المأثور في تفسير سورة الفاتحة : د. عبدالله بن سليمان الأحمدي، ٦٥ ــ ٦٩، دار طيبة، الرياض، ط/١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م . وتفسير ابن كثير : ١٧/١ .

(٤٦) البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ٣١/١، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط/٢، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م .

(٤٧) الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي، ١٣٦/٢، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط/٤، ١٣٨٩هـ = ١٩٧٨م .

(٤٨) النظم في اللغة يأتي بمعنى التأليف والجمع والضم . وفي الاصطلاح : تأليف الكلمات والجمل مرتّبة المعاني، متناسبة الدلالات، على حسب ما يقتضيه العقل . (انظر : لسان العرب، "نظم " . والتعريفات للشريف الجرجاني، ٢٤٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/٢، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م) . وقد ظهرت فكرة النظم بعدما بدأ البحث في إعجاز القرآن، وعد العلماء نظمه العجيب وتأليفه البديع وجهاً من وجوه إعجازه . (انظر : إعجاز القرآن للباقلاني، ص٣٥) . ويعد الشيخ عبدالقاهر الجرجاني من أبرز من درس فكرة النظم، فرد إعجاز القرآن إلى خصائص في نظمه وأسلوبه . والنظم عنده هو " تأخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام "، والنظم أو معاني النحو الذي يُعنى به البلاغيون هو الذي يتجاوز درجة الصحة إلى درجة الفضيلة والمزية أو الجمال أو البلاغة، ومعظم الأبحاث التي درسها عبدالقاهر في كتابه " دلائل الإعجاز " وعدها من مباحث النظم كالتقديم والتأخير والحذف وغيرهما هي التي سميت فيما بعد باسم علم المعاني . يقول الخطيب القزويني : " وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه الإمام عبدالقاهر بالنظم " . انظر في ذلك: دلائل الإعجاز : عبدالقاهر الجرجاني، تعليق محمود شاكر / ٢٨٢، ٣٠٠، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/٢، ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م، والإيضاح : ٨١/١ .

(٤٩) انظر : الكشاف : جار الله الزمخشري، ٢٦/١ وما بعدها، دار المعرفة، بيروت . وغرائب القرآن ورغائب الفرقان على هامش تفسير الطبري، ٥٠/١، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م . وتفسير ابن كثير : ١٩/١ .

(٥٠) من بدائع النظم القرآني : د. السيد حجاب، ٨٦، مطبعة الجندي، القاهرة .

(٥١) الكشاف : ٤٦/١ .

(٥٢) انظر : تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ٢١٨/١، ٢١٩، ومن بدائع النظم القرآني : ٨٨، ٨٩، وانظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : الخطابي والرماني وعبدالقاهر الجرجاني، تح : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ٢٧، دار المعارف، القاهرة .

(٥٣) سورة الحجرات : ١٤ .

(٥٤) المحرر الوجيز : ابن عطية الأندلسي، تح : المجلس العلمي بفاس، ٣٩/١، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م .

(٥٥) من بدائع النظم القرآني : ٩٠ .

(٥٦) تفسير القرطبي: ٩٣/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

(٥٧) روائع البيان : محمد بن علي الصابوني، ٣٦/١، دار السلام للطباعة والنشر، ط/٢، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م .

(٥٨) روح المعاني : ٨٠/١ .

(٥٩) تفسير أبي السعود : ٢٥/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

(٦٠) يدور معناه في اللغة حول الانصراف عن الشيء . وهو عند جمهور البلاغيين " التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم

والخطاب والغيبة) بعد التعبير عنه بطريق آخر منها" .

انظر : لسان العرب (لفت) والإيضاح : ١/١٥٧، وبغية الإيضاح : ١/١٥٢ . والالتفات ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم، ويرد في صور متعددة كالانتقال من الخطاب إلى الغيبة في آية يونس " هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة " أي بكم . وهو من أساليب العربية وفنونها الرفيعة، عُنِيَ به اللغويون والبلاغيون منذ القدم، وفتحوا له صفحات في كتبهم . انظر ذلك في : بديع ابن المعتز : ٥٨، ومفتاح العلوم: أبو يعقوب السكاكي، ٩٥، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط/١، ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م . والمثل السائر : ابن الأثير، تح : الحوفي وطبانة، ٢/١٨١، مطابع الفرزدق، الرياض، ط/٢، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، والطراز : ٢/١٣١، وخصائص التراكيب : ١٩٤، ١٩٥ .

(٦١) الكشاف : ١/٦٤ .

(٦٢) روح المعاني : ١/٨٩ .

(٦٣) خصائص التراكيب : د. محمد محمد أبو موسى، ٢٠١، دار التضامن، نشر مكتبة وهبه، القاهرة، ط/٢، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م . وانظر : بغية الإيضاح : ١/١٥٨ .

(٦٤) الكشاف : ١/٦٢ .

(٦٥) تفسير أبي السعود : ١/٢٦ .

(٦٦) بغية الإيضاح : ١/٢٢٩ وانظر المفتاح : ١٦٣ .

(٦٧) انظر : الكشاف : ١/٢٩ .

(٦٨) البحر المحيط : ١/٩، ٢٤ .

(٦٩) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : د. محمد محمد أبو موسى، ٣٤٠، مكتبة وهبة، القاهرة، ط/٢، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

(٧٠) انظر : الكشاف ١/٦٦ وروح المعاني : ١/٨٨، وتفسير أبي السعود : ١/٢٦ .

(٧١) انظر : روح المعاني ١/٩٠ . والدلالة على العموم من دواعي حذف المفعول عند البلاغيين، فالحذف في قوله " إياك نستعين " يشير إلى التعميم في المعنى والشمول وأن الفعل يتناول كل مستعان فيه . ومثله قولهم : " فلان يعطي " فالعطاء واقع على كل سائل أو طالب، ولو ذكر المفعول لاقتصر الفعل عليه دون غيره، انظر : مفتاح العلوم : ١٠٩، والإيضاح : ١/٢٠١، وبغية الإيضاح : ١/٢٢٣ .

(٧٢) الكشاف : ١/٦٦ .

(٧٣) روح المعاني : ١/٩٠ .

(٧٤) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب : ابن القيم الجوزية، تح : بشير محمد عيون، ١٨٥، نشر مكتبة دار البيان .

(٧٥) انظر : تفسير الطبري : ١/٥٧ وتفسير ابن كثير ١/٢٧، ٢٨ وفتح القدير ١/٢٨ وصفوة التفاسير : محمد بن علي الصابوني، ١/١٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م .

(٧٦) تفسير الطبري : ١/٥٧ .

(٧٧) الاستعارة مجاز لغوي علاقته المشابهة، وهي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي . وهي نوعان : تصريحية وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به، ومكنية وهي ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه . انظر في ذلك مفتاح العلوم : ١٧٤، وشروح التلخيص : ٤/٣٠، ٤٦، ١٥٠ وما بعدها، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧م، وبغية الإيضاح : ٣/٩٠، ١٥٤ .

(٧٨) من مواضع الفصل بين الجملتين، ويكون ذلك إذا كانت الجملة الثانية جواباً عن سؤال اقتضته الجملة الأولى، ويسمى

الفصل لذلك استئنافاً وتسمى الجملة الثانية استنافا أو مستأنفة . انظر في ذلك شروح التلخيص : ٥٣/٣، وبغية الإيضاح : ٧٩/٢ .

(٧٩) من مواضع الفصل بين الجملتين، وهو أن يكون بين الجملتين اتحاد تام، وذلك بأن تكون الجملة الثانية توكيدا للأولى أو بيانا لها أو بدلاً منها، انظر شرح التلخيص : ٣٠/٣ وما بعدها وبغية الإيضاح : ٧١/٢ وما بعدها .

(٨٠) روح المعاني :٩٣/١، وانظر : تفسير أبو السعود ٢٧/١ .

(٨١) من مواضع الفصل بين الجملتين . وهو أن يكون بينهما تباين تام، وذلك بأن تختلفا خبرا وإنشاء أو ألا يكون بين الجملتين جامع . انظر : شروح التلخيص : ٢٥/٣ وما بعدها وبغية الإيضاح : ٦٨/٢ وما بعدها .

(٨٢) الكشاف : ٦٨/١، ٦٩ .

(٨٣) روح المعاني : ٩٧/١ .

(٨٤) المرجع نفسه : ٩٧/١ .

(٨٥) سورة الشعراء : ٧٥ ــ ٨٠ .

(٨٦) سورة الجن : ١٠ .

(٨٧) انظر : المثل السائر ١٨٤/٢، وانظر : البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، ٣٢٥/٣، دار المعرفة، بيروت، ط/٢ .

(٨٨) الإتقان في علوم القرآن : ١٣٧/٢ .

(٨٩) تفسير الطبري : ٤٢/١ ٤٣ .

(٩٠) الكشاف : ٤٥/١ .

(٩١) انظر : المأثور في تفسير سورة الفاتحة : ٨٣ ــ ٨٨ .

(٩١) سورة البقرة : ٢٨٥، ٢٨٦ .

(٩٢) سورة البقرة ١ ــ ٥ .

(٩٣) تفسير أبي السعود : ٣٢٧/١ .

(٩٤) المصدر نفسه : ٣٢٧/١ .

(٩٥) المصدر نفسه : ٣٢٧/١ .

(٩٦) انظر : فتح القدير : ٣٨٩/١، وتفسير أبي السعود ٣٢٧/١، وتفسير ابن كثير : ٣٤٣/١ .

(٩٧) فتح القدير : ٣٨٩/١ .

(٩٨) الكشاف : ١ /٤٠٨ وتفسير البيضاوي:١٤٦/١، ١٤٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م .

(٩٩) روح المعاني : ٧٠/١ .

(١٠٠) في ظلال القرآن : سيد قطب، ٣٤٥/١، دار الشروق، ط/١٥، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

(١٠١) الكشاف : ٤٠٨/١ .

(١٠٢) البحر المحيط : ٣٦٧/١، ٣٦٨ .

(١٠٣) سورة آل عمران : ١٨٩ ــ ١٩٥ .

(١٠٤) في ظلال القرآن : ٥٤٤/١ .

(١٠٥) سورة آل عمران : ١٨٨ .

(١٠٦) تفسير أبي السعود : ٨٠/٢، ٨٣ .

(١٠٧) انظر : الكشاف ٤٨٨/١ .

(١٠٨) من بدائع النظم القرآني : ٦٠ .

(١٠٩) انظر : تفسير أبي السعود ٨٥/٢ .

(١١٠) المصدر نفسه : ٨٥/٢ .

(١١١) نظم الدرر : ١٩٨/٢ .

(١١٢) تفسير بي السعود : ٨٥/٢ .

(١١٣) الكشاف : ٤٨٩/١ .

(١١٤) انظر : المصدر نفسه ٤٨٩/١ وتفسير البيضاوي ١٩٦/١ والبحر المحيط : ١٤٢/٢ وفتح القدير : ٥١٧/١ .

(١١٥) في ظلال القرآن : ٥٤٧/١ .

(١١٦) انظر : الكشاف : ٤٨٩/١ .

(١١٧) تفسير أبي السعود : ٨٦/١ .

(١١٨) المصدر السابق : ٨٧/٢ .

(١١٩) المصدر نفسه : ٨٨/٢ وانظر : الكشاف : ٤٩٠/١ .

(١٢٠) المجاز العقلي ـ ويسمى مجازا حكميا ومجازا في الإثبات وإسنادا مجازيا ـ وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما حقه أن يسند إليه لعلاقة مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له على حقيقته، وله علاقات شتى كالفاعلية والمفعولية والمصدرية ... وسمي عقليا لاستناده إلى العقل دون الوضع . انظر في ذلك : شروح التلخيص : ٢٣١/١ وما بعدها، وبغية الإيضاح : ٥٦/١ وما بعدها، وأسرار البلاغة : ٢٥٦/٢ ـ ٢٦٩ .

(١٢١) انظر : بديع القرآن : ابن أبي الأصبع، تح : د. حفني شرف، ٣٦، دار النهضة، القاهرة، ط/٢ . وبديع ابن المعتز : ٢٧ والعمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني، تح : محمد محي الدين عبدالحميد، ٣/٢، مطبعة دار الجيل، بيروت، ط/٤، ١٩٧٢.

(١٢٢) في ظلال القرآن : ٥٤٨/١ .

(١٢٣) سورة الأعراف : ٢٣ .

(١٢٤) سورة المؤمنون : ١١٨ .

(١٢٥) سورة طه : ٢٥ ـ ٣٥ .

(١٢٦) سورة طه : ١١٤ .

(١٢٧) سورة البقرة : ١٢٦ .

(١٢٨) سورة ص : ٣٥ .

(١٢٩) سورة مريم : ٤ ـ ٦ .

(١٣٠) سورة إبراهيم : ٣٥ ـ ٤١ .

(١٣١) سورة البقرة : آية ١٢٦ ـ ١٢٩، وسورة الشعراء : آية ٨٣ ـ ٨٩، وسورة الممتحنة : آية ٤، ٥ .

(١٣٢) في ظلال القرآن : ٢١٠٨/٤، ٢١٠٩ .

(١٣٣) انظر : الفتاوى : ٢٤٧/١٠، والوابل الصيب : ابن قيم الجوزية، تح : بشير محمد عون، ١٨٥، نشر مكتبة دار البيان .

(١٣٤) الفتاوى : ٣٨٤/١٠ ـ ٣٨٦، وانظر : الدعاء : ٢٤٨/١ وما بعدها .

(١٣٥) انظر : الكشاف : ٣٠٥/٣، وفتح القدير : ٤٣٣/٥ .

(١٣٦) حاشية الصاوي على الجلالين : ٢/٢٨٦ عن صفوة التفاسير : ٢/٥٥٥ . وانظر : الكشاف ٢/٣٠٤ والبحر المحيط : ٥/٤٣٠ وتفسير أبي السعود : ٣/٤٩٣ .

(١٣٧) فتح القدير : ٣/١١٢ .

(١٣٨) الكشاف : ٢/٣٠٤ .

(١٣٩) سورة هود : ٧٥ .

(١٤٠) البحر المحيط : ٥/٤٣١ .

(١٤١) فتح القدير : ٣/١١٢ .

(١٤٢) تلخيص البيان : ١١٣، وانظر : صفوة التفاسير : ٢/٥٥٥ .

(١٤٣) في ظلال القرآن : ٢/٢١١٠ .

(١٤٤) تفسير أبي السعود : ٣/٤٩٥ .

(١٤٥) البحر المحيط : ٥/٤٣٤ .

(١٤٦) تفسير أبي السعود : ٣/٤٩٥ .

(١٤٧) تلخيص البيان في مجازات القرآن : الشريف الرضي، ١١٣، ط/١، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م .

(١٤٨) سورة مريم : ١ ــ ١١ .

(١٤٩) انظر : قصص الأنبياء : ٣٦٨ وانظر : في ظلال القرآن : ٤/٢٣٠٣ .

(١٥٠) سورة آل عمران : ٣٧، ٣٨ .

(١٥١) انظر : الكشاف ٢/٤٠٤، وتفسير البيضاوي ١/٢٦، والبحر المحيط ٦/١٧٢، وتفسير أبي السعود : ٤/٢٢٦ .

(١٥٢) الاحتراس من صور الإطناب عند علماء البلاغة المتأخرين، وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، وهو نوعان : نوع يكون في وسط الكلام كقول طرفة :

فسقى ديارك ــ غير مفسدها   صوب الربيع وديمة تهمي

فقوله : " غير مفسدها " احتراس من مقابله وهو محو معالمها .

ونوع يقع في آخر الكلام، كقوله تعالى : " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين " فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتوهم أن ذلتهم لضعفهم، فلما قيل : " أعزة على الكافرين " علم أنها منهم تواضع لهم ... " ومنه قوله : " نداء خفيا " . انظر في ذلك : الإيضاح : ١/١٢٦، ١٢٧، وبغية الإيضاح : ٢/١٤٢، ١٤٣ .

(١٥٣) الكشاف : ٢/٤٠٤ .

(١٥٤) الفتاوى : ١٥/١٥ ــ ١٩ .

(١٥٥) انظر : الكشاف ٢/٤٠٥، وتفسير البيضاوي : ٢/٢٦، والبحر المحيط : ٦/١٧٤، وتفسير أبي السعود ٤/٢٢٩، وفتح القدير : ٣/٣٩٩ . والاستعارة التصريحية التبعية هي ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً أو اسما مشتقا أو حرفا . انظر : شروح التلخيص : ٤/١١١ وما بعدها وبغية الإيضاح : ٣/١٣٥ .

(١٥٦) انظر : دلائل الإعجاز : ١٠٠ ــ ١٠٢ .

(١٥٧) مفتاح العلوم : ١٣٨ وانظر : الإيضاح : ٢٩٥، وبغية الإيضاح : ٢/١٢٦ .

(١٥٨) تفسير أبي السعود : ٤/٢٢٨ .

(١٥٩) انظر : الكشاف ٢/٤٠٥ .

(١٦٠) المصدر نفسه : ٢/٤٠٥ .

(١٦١) تفسير أبي السعود : ٤/٢٢٨ .

(١٦٢) البحر المحيط : ٦/١٧٢ .

(١٦٣) التجريد هو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة، مبالغة في كمالها فيه، وله صور متعددة. انظر في ذلك : الإيضاح : ٢/٥١٢، وبغية الإيضاح : ٤/٤٤ ــ ٤٦ .

(١٦٤) انظر : الكشاف : ٢/٤٠٥ والبحر المحيط : ٦/١٧٤ .

(١٦٥) انظر : تفسير أبي السعود : ٤/٢٢٩ .

(١٦٦) في ظلال القرآن : ٤/٢٣٠٢، ٢٣٠٣ .

(١٦٧) انظر : تفسير أبي السعود : ٤/٢٢٩ .

(١٦٨) المصدر نفسه : ٤/٢٣٠ .

(١٦٩) في ظلال القرآن : ٢/٢٣٠٣ .

(١٧٠) انظر : فتح القدير : ٣/٣٢٣ . والكشاف : ٢/٤٠٦ .

(١٧١) انظر : فتح القدير : ٣/٣٢٣

(١٧٢) انظر : الكشاف ٢/٤٠٦، وتفسير أبي السعود : ٤/٢٣٢ .

(١٧٣) المصدر نفسه : ٢/٤٠٦ .

(١٧٤) تفسير أبي السعود : ٤/٢٣١ .

(١٧٥) المصدر السابق : ٤/٢٣١ .

(١٧٦) المصدر نفسه : ٤/٢٣٢ .

(١٧٧) في ظلال القرآن : ٤/٢٣٠٣ .

(١٧٨) من علاقات المجاز المرسل وتسمى الجزئية، وهي أن يكون المعنى الأصلي للفظ المذكور جزءاً من المعنى المراد، كإطلاق العين على الرقيب والجاسوس . والمجاز المرسل هو مجاز لغوي علاقته غير المشابهة، ويعرف بأنه اللفظ المستعمل في غير المعنى الذي وضع له لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الموضوع له . وسمي مرسلاً لأنه مطلق من قيد التقييد بعلاقة واحدة وهي المشابهة إذ له عدة علاقات . انظر : شروح التلخيص : ٤/٢٤، ٣٢، ٣٤، ٣٥، وبغية الإيضاح : ٣/٩٠، ٩٥ .

(١٧٩) البحر المحيط : ٦/١٧٦ .

(١٨٠) سورة طه : آية ٤٥ ــ ٣٦ .

(١٨١) سورة الأعراف : آية ١٤٣، وسورة يونس : آية ٨٨، وسورة طه : آية ٢٥ ــ ٣٦ وسورة الشعراء : آية ١٢ ــ ١٤، وسورة القصص : آية ٣٣، ٣٤ .

(١٨٢) النظم الفني في القرآن : عبدالمتعال الصعيدي، ١٩٤، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة

(١٨٣) انظر : في ظلال القرآن : ٤/٢٣٢٩ والنظم الفني : ١٩٤ .

(١٨٤) سورة طه : آية ١٣ .

(١٨٥) سورة طه : آية ١٤، ١٥ .

(١٨٦) البحر المحيط : ٦/٢٣٩ .

(١٨٧) المفردات في غريب القرآن : " شرح "، ولسان العرب : " شرح " .

(١٨٨) التحرير والتنوير : ابن عاشور، ١٦/١١٣، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط/١،١٤٢٠هــ = ٢٠٠٠م .

(١٨٩) تفسير أبي السعود : ٤/٢٧٦ .

(١٩٠) انظر : بغية الإيضاح : ١٣٣/٢، وانظر : الكشاف : ٤٣٢/١ ومفتاح العلوم : ١٣٦

(١٩١) تفسير أبي السعود : ٢٧٦/٤ .

(١٩٢) انظر : لسان العرب " عقد "، والمفردات في غريب القرآن " عقد " .

(١٩٣) انظر : التحرير والتنوير : ١١٣/١٦، ١١٤ .

(١٩٤) انظر : المرجع نفسه :١١٤/١٦ .

(١٩٥) المرجع السابق : ١١٤/١٦ .

(١٩٦) انظر : الكشاف : ٤٣٢/٢، والتحرير والتنوير : ١١٤/١٦ .

(١٩٧) انظر : تفسير أبي السعود : ٢٧٧/٤ .

(١٩٨) انظر : الكشاف ٤٣٢/٢، وتفسير أبي السعود : ٢٧٧/٤، ومعاني القرآن وإعرابه : ٣٥٦/٣ .

(١٩٩) تفسير أبي السعود : ٢٧٨/٤ .

(٢٠٠) انظر : معاني القرآن وإعرابه : ٣٥٦/٣، والكشاف : ٤٣٢/٢، ونظم الدرر : ١٧/٥

(٢٠١) البحر المحيط : ٢٤٠/٦ .

(٢٠٢) انظر : تفسير أبي السعود٢٧٨/٤، وفتح القدير : ٣٦٤/٣ وظلال القرآن : ٢٣٣٤/٤ .

(٢٠٣) سورة نوح : ٢٤ ــ ٢٨ .

(٢٠٤) سورة نوح : ٥ ــ ٢٢ .

(٢٠٥) صفوة التفاسير : ١٣٠٩/٣ .

(٢٠٦) تفسير أبي السعود : ٣١١/٦ .

(٢٠٧) المصدر نفسه : ٣١١/٦ .

(٢٠٨) انظر : صفوة التفاسير ١٣٠٩/٣، والتحرير والتنوير : ١٩٧/٢٩ .

(٢٠٩) المرجع السابق : ١٣٠٩/٣، وانظر : فتح القدير : ٣٠١/٥ .

(٢١٠) في ظلال القرآن : ٣٧١٦/٦ .

(٢١١) تفسير أبي السعود : ٣١١/٦ .

(٢١٢) سورة هود : ٤٤ .

(٢١٣) سورة الحجر ٨٧، وانظر : الإتقان في علوم القرآن : ٩٢/٢ .

(٢١٤) انظر : فتح القدير : ١٧٦/٣، وصفوة التفاسير ٥٦٤/٢ .

(٢١٥) سورة التوبة : ٧٠ .

المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم .

٢) الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط/٤، ١٣٨٩هـ = ١٩٧٨م .

٣) أسس النقد الأدبي عند العرب : د. أحمد أحمد بدوي، دار النهضة، القاهرة .

٤) إعجاز القرآن : أبو بكر الباقلاني، تح : السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط/١ .

٥) الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني، شرح : د. محمود عبدالمنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط/٥، ١٤٠٠ = ١٩٨٠م .

٦) البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي الغرناطي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط/٢، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م .

٧) بدائع الفوائد : ابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت .

٨) بديع القرآن : ابن أبي الإصبع المصري، تح : د. حفني شرف، دار النهضة، القاهرة، ط/٢ .

٩) البديع : عبدالله بن المعتز . تح : كراتشقوفسكي، لندن، ١٩٣٥م .

١٠) البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط/٢ .

١١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح : الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة، ط/٦ .

١٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط/٢، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

١٣) التحرير والتنوير : ابن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط/١، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م .

١٤) التعريفات : الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/٢، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م .

١٥) تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م .

١٦) تفسير أبي السعود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

١٧) تفسير البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م .
١٨) تفسير الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت، ط/٥، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م .
١٩) تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م .
٢٠) تفسير القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .
٢١) تلخيص البيان في مجازات القرآن : الشريف الرضي، ط/١، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م .
٢٢) تهذيب اللغة : أبو منصور الأزهري، تح : د. عبدالحليم النجار، مراجعة الأستاذ محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والنشر، بدون تاريخ .
٢٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : الخطابي والرماني وعبدالقاهر الجرجاني، تح : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة .
٢٤) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام : ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت .
٢٥) جمهرة اللغة : ابن دريد، دار صادر، بيروت، مصدورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٥هـ .
٢٦) خزانة الأدب وغاية الأرب : ابن حجة الحموي، طبعة بولاق سنة ١٢٩١هـ .
٢٧) خصائص التراكيب : د. محمد محمد أبو موسى، دار التضامن، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط/٢، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م .
٢٨) الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية : أبو عبدالرحمن جيلان العروي، مكتبة الرشد، الرياض، ط/١، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م .
٢٩) دلائل الإعجاز : عبدالقاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/٢، ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م .
٣٠) روائع البيان : محمد علي الصابوني، دار السلام للطباعة والنشر، ط/٢، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م .
٣١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : الألوسي .
٣٢) شروح التلخيص : التفتازاني والمغربي والسبكي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧م .
٣٣) شأن الدعاء : أبو سليمان الخطابي، تح : أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق، ط/٣، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م .
٣٤) صحيح الإمام مسلم، تح : محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٣٥) صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م .

٣٦) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني، تح : محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة دار الجيل، بيروت، ط/٤، ١٩٧٢م .

٣٧) غريب القرآن . ابن قتيبة، تح : أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ .

٣٨) الفتاوى : شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع : عبدالرحمن القاسم، ط . الرياض .

٣٩) فتح الباري : ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت .

٤٠) فتح القدير : محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت .

٤١) في ظلال القرآن . سيد قطب، دار الشروق، ط/١٥، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

٤٢) قصص الأنبياء : عبدالوهاب النجار .

٤٣) الكشاف : جار الله الزمخشري، دار المعرفة، بيروت .

٤٤) لسان العرب: ابن منظور، تح : عبدالله علي الكبير وزملائه، دار المعارف، مصر .

٤٥) المأثور في تفسير سورة الفاتحة : د. عبدالله بن سليمان الأحمدي، دار طيبة، الرياض، ط/١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م .

٤٦) مباحث في علوم القرآن : د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط/٢٠، ١٩٩٧م .

٤٧) المثل السائر : ابن الأثير، تح الحوفي وطبانة، مطابع الفرزدق، الرياض، ط/٢، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م .

٤٨) مجاز القرآن . أبو عبيدة معمر بن المثنى، تح فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة .

٤٩) المحرر الوجيز . ابن عطية الأندلسي، تح المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م

٥٠) المخصص : ابن سيده، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٦هـ .

٥١) المسند : أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي .

٥٢) معاني القرآن : الفراء، تح : أحمد نجاتي ومحمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/٢، ١٩٨٠م .

٥٣) معاني القرآن وإعرابه : أبو إسحاق الزجاج، تح : د. عبدالجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط/١، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

٥٤) مفتاح العلوم . الستاكي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط/١، ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م .

٥٥) المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت، ط/١، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م .

٥٦) من بدائع النظم القرآني : د. السيد عبدالفتاح حجاب، مطلعة الجندي، القاهرة .

٥٧) النظم الفني في القرآن : عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة .

٥٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م .

٥٩) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب : ابن قيم الجوزية، تح : بشير محمد عيون، نشر مكتبة دار البيان، توزيع مكتبة المؤيد .